
روايات مصرية
51
سافارى
Looloo
www.looloolibrary.com
عودة
ساحرة الأفاعى
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ــ كما يقول الغلاف ــ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك ــ كما قلنا ــ من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًّا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

لربما كان من الأفضل أن تفتش فى صندوق الورق المقوى القديم تحت الفراش عن الكتيب رقم 18 من سلسلة سافارى . لسوف تجده بالتأكيد ما لم يكن صديقك مصطفى قد استعاره ولم يعده كالعادة ، وما لم يكن كوب القهوة قد انسكب فوقه . اسمه (عام الأفاعى) ، وهو يخبرك بالضبط بحكاية علاء وبرنادت مع ساحرة الأفاعى ميرا جوران، والطوطم الذى قتله علاء ولعنة الانتقام .. إلخ . لو لم تجده فإننى أرجو أن تخبرنى بذلك لألخص لك القصة بسرعة..

1 ـ المهمـــــة ..

كانت تنتظر فى الظلام وتترقب ..

يمكنها أن تشم رائحة الليل الأفريقى ورائحة العشب ، ورائحة العرق الممتزجة بعطر غامض مبهم .. يمكنها أن تشعر بكل شىء عن طريق الحفرتين الدقيقتين تحت العينين ، واللتين منحتاها اسم (الأفعى ذات الحفر) فى كتب الأحياء .

تخرج لسانها مرة .. مرتين تتلمس العالم من حولها .. يتألق الشريط البنى المميز فوق رأسها ..

فى حذر تنساب وسط العشب ..

تعرف جيدًا ما يجب أن تقوم به ، وتعرف هدفها ..

برغم أنها لا تعرف وجهتها فعلاً ، فهى تعرف أن ذلك النداء يرغمها على الذهاب هناك .

من بعيد ترى الأضواء الخافتة ، وترى الأشجار تهتز. هى صماء تمامًا لكنها قادرة على الشعور بكل شىء فى العالم كأنها تراه بالضبط .

عندها قدرة هائلة على قياس الانبعاث الحرارى ، وهى تدرك جيدًا أن هناك كتلة دافئة بين الأعشاب .. فأر مذعور على الأرجح لكن لا وقت عندها للأكل .. هناك مهمة يجب أن تنفذها ، دعك من أن تمثيلها الغذائى قليل أصلاً .. لا داعى لهذه الوجبة ..

إنها كائن كسول بطيء الحركة ، لكن التصميم من مزاياها المهمة ...

هى مولعة بغابات الأمطار الحارة ولا تحب المرتفعات ، وهى تدرك بحواسها انها على مرتفع .. لكنها تتقدم بمثابرة وصبر نحو الهدف ..

متران فى الطول ووزن ثقيل يقترب من عشرين كيلوجرامًا .. هى لا تعرف أنها الأضخم فى غرب أفريقيا . هذه ليست مزية مفيدة بالنسبة لأفعى تعتمد على الوثب لتجلب رزقها .. ليست ثعبانًا عاصرًا كالأصلة يحتاج لضخامته وقوته كى يفتك بفأر أو خنزير صغير ..

برغم هذا هى قاتلة ، وبرغم هذا يعرف الناس اسمها وشكلها ويطلقون عليها (أفعى الجابون) ..

تفتح فمها وتتثاءب كاشفة عن نابين طول الواحد منهما خمسة سنتيمترات .. هذا طول مرعب بالنسبة لأنياب أفاعى غرب أفريقيا .. بالواقع طولها مرعب بالنسبة لأى أفعى ..

هناك قرنان على جانبى الرأس .. قرنان دقيقان يذكرانك بالحية المقرنة أو الطريشة فى مصر .. وهذان القرنان يعطيانها منظرًا أسطوريًا كابوسيًا ..

تتقدم ببطء بين الأعشاب .. مسيرة شاقة هى .. لكنها تدرك أن هذا هو الغرض من وجودها ..

من المستحيل أن تميزها حتى فى النهار لأنها والأعشاب كتلة واحدة..

لكن إذا دنوت منها لسمعت هسيسًا غاضبًا : سسسسسسس !

سمها ليس فى خطورة سم الكوبرا أو منافستها المامبا السوداء .. المامبا التى تنطلق فى وجهك كرصاصة لتعضك عضة قاتلة تقتلك خلال نصف ساعة أو أقل . سم أفعى الجابون ليس بهذه الخطورة لكنها تحقن جرعات كبيرة منه .. وهنا يكمن الخطر .

من بعيد ترى السور .. سور حديدى يحيط بمربع المساكن .

ومنذ متى تهتم الأفاعى بسور من قضبان حديدية ؟

فى بطء تنسل بين القضبان كأنها سائل ينصب .. ثم تهبط إلى العشب وتنظر حولها ..

هناك طريق أسفلتى يجب أن تعبره .. ليس هذا من الحكمة لأنها تعلمت أن السيارات تدهم الأفاعى الغبية . لن تملك أبدًا السرعة الكافية لعبور الممر إذا جاءت سيارة .

لكن لا سيارات هنالك .. لا شيء سوى الظلام .

تعبر الأسفلت ثم تدخل منطقة أخرى من الكلأ ...

البيت هناك ينتظر .. أضواء خافتة .. حديقة صغيرة تفوح منها روائح عطرة ..

تدور حوله ببطء .. فى حذر تتشمم الهواء ولسانها يخرج ويدخل بلا توقف .. ثمة دراجة مستندة للجدار .. هناك رفش ودلو خشبى فارغ ..

تتشمم الدلو وتدور حوله ، ثم تواصل البحث ..

هناك فأر صغير رآها فجأة فتوقف قلبه ذعرًا ، واندفع يتسلق الجدار. بالطبع لا خوف عليه فهى لا تستطيع اللحاق به .. إنها أفعى الأهداف الثابتة . لابد من كائن بطىء ينتظر .. السيناريو الأفضل لها هو أن يدوس عليها المرء وهى نائمة وسط العشب .. عندها يتاح لها أن تعض عضة مشبعة ...

هناك أكثر من نافذة لكنها موصدة بإحكام .

ولكنها تدرك يقينًا أن هناك فتحة ما ..

ثم رأت تلك الماسورة الصغيرة غير المتصلة بشىء تخرج من الجدار .. مواسير كهذه تجدها الفئران فرصة ممتازة للتسلل . لكنها انسلت وحشرت نفسها داخلها ..

ممر طويل صلب بارد ...

ثم شعرت بأنها تتحرر ..

هذا مكان رطب عطن الرائحة قليلاً . إنه قبو كما هو واضح ...

زحفت ببطء فــوق الأرض الرطبة بين سلال فارغة وصحف قديمة وزجاجات مهشمة يغلفها العنكبوت . العناكب تركض مبتعدة ..

أخيرًا ترى فرجة فى الباب ..

زحفت ببطء وأطلت منها ..

يمكنها أن ترى مكانًا فسيحًا نظيفًا .. هناك شخص يتحرك ..

دققت النظر جيدًا فرأت أن هذا الشىء طفل .. بالتحديد طفلة تزحف على الأرض وهى تعبث ببعض الدمى .. تصدر أصواتًا مضحكة من فمها ..

امرأة شقراء تظهر من مكان ما وتنحنى على الطفلة ..

لم تكن تسمع طبعًا ولو سمعت لما فهمت ما يقال ..

السيدة كانت تقول :

ـ « سارة .. تعالى لتتناولى عشاءك .. »

ثم صوت رجل من مكان ما يقول :

ـ « هيا يا برنادت .. أنا أتضور جوعًا .. »

لم تسمع الحية هذا طبعًا .. فقط كانت تعرف أن عليها أن تصبر وتنتظر حتى تأتى اللحظة المناسبة ..

إن القبو واسع ومظلم ورطب .. يمكنها أن تبقى حيث هى بضعة أيام بلا مشاكل .

* * *

2 ـ الخبيــــر ..

وقف أمام المرآة يرمق عينيه ..

ثم إنه مد يده أمامه وراح يراقب الرجفــة هناك .. لا بأس .. الأمــور تتحسن .. لا شك أن جرعة اليود المشع التى تلقاها بدأت تعمل . إن غدته الدرقية بدأت تهدأ قليلاً ، بعدما استهلك أطنانًا من عقار نيوميركازول بلا جدوى ..

طبيب الغدد هنا فى أوريجون قال له : إن حالة غدته تتدهور فعلاً . فقد وزنًا كبيرًا ولم يعد يستطيع النوم ، كما أنه كان غارقًا فى العرق معظم الوقت ... دعك من عصبيته وسرعة الشجار التى جعلته يخسر كثيرين من أصدقائه ويخسر زوجته ..

كانت هذه هى اللحظة التى قرر فيها أن الوقت قد حان للبحث عن معونة طبية . وكانت العملية معقدة لكنها بدأت تؤتى أكلها .. على الأقل صار قادرًا على النوم ..

خرج من الحمام وهو يجفف الصابون عن ذقنه .. ما زال نحيلاً بشدة ، وما زال تكوينه العام يشى بمهنته : خبير أفاع لدى منظمة الصحة العالمية . هكذا اكتسب بعض صفات الثعابين بلا شك ، مثلما يكتسب مربو الكلاب بعض طباعها ، وتتحول الفتيات عاشقات القطط إلى قطط آدمية ..

جلس أمام شاشة الكمبيوتر المفتوح ، وعلى سطح المكتب صورة كبيرة لابنته (جين) . كانت فى الخامسة من عمرها عندما التقطت هذه الصورة .

ضغط على أيقونة البريد الإلكترونى وراح يتفقد الخطابات التى وصلته ..

مايكل .. واكيمى .. دونكان .. باسيل .. ثم .. (علاء عبد العظيم). الطبيب المصرى الملتحى العصبى الــذى قابله فى وحــدة ســافارى بالكاميرون ... أداماوا ماسيف ..

وابتسم .. قليل من الناس مروا بتجربة أن يكونوا طعامًا أو قربانًا لثعبان الأصلة .. هو مر بتلك التجربة مع الطبيب المصرى والطبيبة الحسناء ، وفيما بعد ، بعد النجاة عرف أن المصرى والكندية تزوجا .. وإنهما هربا إلى كينيا بسبب غضب تلك القبيلة .. ماذا كان اسمها ؟.. أودجيلا ..

هذا خطاب من (علاء عبد العظيم) يطمئن عليه :

ــ « كيف حالك أيها الصديق ؟.. نحن بخير هنا . الحياة تمضى على وتيرة واحدة فيما عدا أن مديرنا البدين بارتلييه تزوج أخيرًا . كل شىء على ما يرام وأرجو أن تكون بخير .. أرفقت لك آخر صور لسارة الجميلة ابنتى ... إنها شيطانة صغيرة تفعل كل شىء فى وقت واحد ، وهى الدليل الحى على أن الشياطين ليست دائمًا قبيحة أو مخيفة .. »

ابتسم دكتور ويليام براكستون وصب لنفسه بعض القهوة ، ثم ضغط على المفاتيح :

ــ « كل شىء على ما يرام هنا .. ســوف أعــود لغرب إفريقيا فى الخريف القادم وأعتقد أننا سنمضى وقتًا ممتازًا معًا .. »

وأرسل الخطاب ثم رشف رشفة من الكوب ..

الحياة .. جعبة تجمع فيها مئات الوجوه والكلمات والمواقف .. وفى النهاية تترك هذه الجعبة بعد ما امتلأت بالخبرات وتزحف إلى القبر. هذا محبط فعلاً ..

اتجه إلى الثلاجة وأخرج بعض الطعام .. بعض السجق وزجاجة لبن .. ثم فتح صندوق الخبز وأخرج رغيفًا. عشاء خفيف ثم النوم ... لقد اعتاد القهوة فلم تعد تمنعه من النوم حتى لو تناولها فى الحادية عشرة مساء ثم إنه سيتناول قرصًا منومًا على كل حال ..

راح يلتهم الطعام مفكرًا ...

فتح جهاز التلفزيون فرأى أنهم يعرضون فيلمًا مسليًا قديمًا من أفلام الستينيات . سيكون هذا ممتعًا . عشاء أمام التلفزيون ..

هكذا راح هناك وراح يشاهد الفيلم مستمتعًا ...

وفجأة توقف عن المضغ .. لقد اختفى ذلك الصوت. الشعور المألوف أن صوتًا كان موجودًا طيلة الوقت وقد اعتادته أذناه لكنه لم يشعر به إلا عندما توقف . هذا يذكرك بالنعمة التى لا تشعر بوجودها إلا عندما تفقدها ، أو السباكة الجيدة التى لا تستوعب أنها كذلك إلا عندما تحدث مشكلة ويغرق البيت فى الماء .

ثمة صوت قد انقطع .. ما معنى هذا ؟

ها هو ذا .. الصوت يعود . صوت غريب مميز .. إلى حد ما يشبه صوت ماء فوق سطح معدنى ساخن. طشطشة إذا سمحت بالتعبير .. لكن لا يوجد ماء على النار .. من أين يأتى هذا الصوت ؟

راح يبحث ويبحث ..

ثم أحضر مصباحًا وركع لينظر خلف الأريكة ، وعندها رأى كابوسًا مجسدًا ..

إنه خبير ثعابين ويعرف على الفور معنى ما يراه هنا ..

ثعبان المرجان بشكله المخيف المميز يتلوى خلف الأريكة. ثعابين مرجان العالم الجديد المخيفة وهى أخطر بكثير من ثعابين مرجان العالم القديم ..

الحلقات ذات لونين أصفر وأحمر ... هذا معناه واضح .... الثعبان ذو سم قاتل ..

القاعدة القديمة هى أن الأصفر والأحمر معناهما أن السم قاتل ...

Red and yellow, kill a fellow .. يمكن ترجمتها بـ (أحمر وأصفر ... هذا أخطر) ..

بينما لو كانت الحلقات حمراء وسوداء فالثعبان غير سام ..

Red and black, venom lack .. يمكن ترجمتها بـ (أحمر أسود .. غير مهدد) ..

أنياب قصيرة وسم شحيح لكنه فعال ، لهذا يعض هذا الثعبان بقوة وغل وينشب أنيابه لفترة طويلة كى يفــرغ ما لديه من ســم .. يمضغ . على عكس الأفاعى التى تعض بسرعة وتبتعد كالدبور ..

المشكلة الأخرى هى أن المصــل شحيح .. ليس منتشرًا فى معظم الولايات الأمريكية لأن عضة الثعبان نفسها نادرة ... وهو سم بطىء المفعول ..

ماذا جاء بهذا اللعين هنا ؟

ليس لديه مختبر فى بيته ولا يحتفظ بأى ثعابين فى البيت . ليس من هواة تربية الثعابين ، وما زال يقشعر منها برغم أنها مجال تخصصه طيلة حياته .. لا وقت للفهم ..

لا يوجد سلاح عنده ... هذه من اللحظات التى يندم فيها المرء على أنه لا يملك حيوان نمس . لكن عنده ما يفى بالغرض عمومًا ..

هرع وقلبه يتواثب إلى الحمام ، فبحث حتى وجد زجاجة حمض الكبريتيك التى يحتفظ بها هناك لتبييض الملاط . عاد للصالة وفتح الزجاجة ، فتصاعدت رائحــة ثانى أكســيد الكبريت الكريهة الحارقة وسعل ، أزاح الأريكة وبحذر راقب الثعبان القاتل ، ثم رفع الزجاجة وبيد ترتجف سكب كمية وافرة على رأس الكائن ..

كانت هذه ألعن طريقة ممكنة .. الشىء لم يمت فى هدوء بل انتفض والدخان يتصاعد منه ، وراح يضرب الجدار والأريكة بقوة مرعبة .. جنون ... راح يتلوى ويثب ..

أسرع براكستون ليحضر حذاءه وانهال على الثعبان لينهى عذابه .. احتاج الأمر لعدة ضربات إلى أن همد الشىء ، والدخان يتصاعد منه مع رائحة فظيعة ...

اللعنة .. سيزور المشهد كوابيسه للأبد ..

تذكر على الفور الأصلة Python التى قام (علاء) عبد العظيم بخنقها فى الكاميرون منــذ أعــوام . (عــلاء) جلب قفازًا من البلاستيك وثبته حول طرف القصبة الهوائية الذى كان يخرج من تحت جسد الرجل الذى يتم ابتلاعه ، وهــذا جعــل الأصلة تنتفض وتضرب الجدران كأنها قطار مجنون ..

هذا مشهد مماثل لكن على نطاق أصغر ..

اتجه للحوض وأفرغ معدته .. ثم إنه أحضر كيسًا من البلاستيك ومكنسة .. بصعوبة حشر الجسد المحترق فى الكيس الذى بدأ يذوب بدوره من الحمض ، ثم أغلقه واتجه إلى علبة القمامة وألقاه فيها .

تبًا .. إنه يرتجف كورقة ..

اتجه للصيدلية وانتقى بعض أقراص البنزوديازبين ..

فيما بعد سيجلس فى الفراش بعض الوقت يفكر فى كيفية ظهور هذا الشىء فى بيته ... ثعابين المرجان لا تدخل البيوت أبدًا بل تنتظر فى الغابات تحت الصخور ..

لكنه ما زال يسمع صوت غليان الماء .. صوت الطشطشة ....

من أين يأتى ؟

إن الصوت يتعالى فى المطبخ فعلاً ..

الصوت آت من الثلاجة .. لا شك فى هذا . هل تلفت ؟

فتح الباب ليلقى نظرة ، وفى اللحظة التالية وجد الأفعى على الأرض .. وكان الدم ينزف من معصمه .. لقد وثبت عليه من فوق رف الثلاجة .

نظر للثعبان فرآه يرسم شكل رقم 8 العربى على الأرض ، وكان يحك جسده ببعضه محدثًا صوت الماء فوق سطح معدنى ساخن .. الطشطشة .. كأنها مكواة ساخنة رششت عليها قطرات ماء . ما يطلقون عليه اسم stridulation .. هذه الأفعى منشارية الحراشف .. لا شك فى هذا .. إنها تصدر هذا الصوت عندما تغضب ..

كيف دخلت الثلاجة ؟ دخلتها بالتأكيد عندما كان يبحث عن شىء يصلح للعشاء ، ومن هنا جاء مصدر الصوت الرتيب .. وكيف جاءت للبيت ؟ جاءت من نفس الطريق الذى جاء منه ثعبان المرجان ..

المشكلة هى أنه خبير ثعابين .. يعرف جيدًا أن الأمر هنا يختلف ..

سم منشارية الحراشف سريع جدًا وفعال جدًا ..

لا يمكنه أن يترك البيت ، بل عليه أن يطلب 911 كى ينقذوه ..

هرع إلى الهاتف الجوال وضغط على الأرقام .. تبًا .. غير مشحون .. هذا أسوأ وقت ينسى فيه المرء شحن الهاتف .. يشعر بالغثيان والعرق يغمره ..

مشى يترنح فى الصالة إلى أن بلغ الهاتف الأرضى .. مد يده للسماعة .. ثم ..

العالم يدور .. الأرض تنزلق ... من أطفأ الأنوار ؟؟؟؟

جين ؟ جين ؟ هل أنت فى هذا العالم معى ؟

* * *

3 ـ الطبيب ..

كان يحلم ..

من الجميل ألا يتكلم المـــرء وهـــو نائم . لو سمعت برنادت ما يقول فلسوف .. فلســـوف ماذا ؟... لا يعرف .. لكنه يصمم أثنـــاء الحلم على ألا يفتح فمه ..

أحلام لها مذاق الحنين .. أحلام عن فتاة أفريقية من الزولو ترفع يدها وهى تغنى بصوت رخيم ، بينما يضرب عشرات الزولو رماحهم بدروعهم ويصرخون مرة واحدة :

ـ« شاكا زولو ! »

تتلوى كالأفعى وتميل برأسها للخلف لتلقى عليه نظرة ناعسة ...

تقول له (أونوابا) وهى تتلوى مع الإيقاع :

ـ « كل هذا من أجلك وحدك يا (علاء) .. من أجلك .. صالاداشى دكتور .. صالاداشى !.. »

ـ« شاكا زولو ! »

هناك فى جنوب أفريقيا يكمن جزء من قلبه. جزء من عواطفه وانبهاره ، لكنه يقاوم هذا الشعور بعنف وبصدق .. فقط عندما تتخلى قبضة الوعى

الصارمة عن باب الأحلام ، تتحرر الرؤى لتلهو .. كما قال كل علماء النفس ..

(أونوابا) الحسناء . ابنة قبائل الزولو التى كانت تظفر بـ (علاء) لنفسها . ما زالت عنيدة وما زالت تصر على أن تأتى ليلاً .. وكأنها ترقص فوق وسادته ..

نهض من النـــوم ليرى برنادت غافية تتنفس بهـــدوء . أتوسل لك يا أونوابا ألا تأتى لبيتى مرة أخرى . أنا صاحب أسرة وأحب زوجتى فعلاً ..

من جديد عاد للنوم فظهرت أونوابا ...

ـ« شاكا زولو ! »

كانت تتلوى راقصة وتنظر له .. ثم بدا يشعر بعدم راحة .. لا يرى لها قدمين أصلاً ... لو كانت هذه أنوابا فلماذا يخرج ذلك اللسان المشقوق من بين شفتيها ؟ لماذا هى مكسوة بالحراشف ؟

إنها .. إنها أفعى !!..

لااااااااااااااااه !

نهض مبللاً بالعرق .. لكن صرخته ظلت داخل صدره .. لم تخرج .. لو صحت برنادت لسألته عن الكابوس ولن يستطيع أن يكذب ...

كان أول ما فعله هو أن هرع إلى الغرفة الجانبية الصغيرة ، حيث تغفو سارة فى فراشها الخشبى الجميل وهى تحتضن الزرافة القطنية الصغيرة

الخاصة بها . استند (علاء) على حاجز السرير الذى يمنع الطفلة من السقوط وانحنى يصغى لتنفسها ، ثم انحنى ولثم شعرها ..

لم يكن يؤمن بالأحلام ولا قدرتها على التنبؤ.. هذا علم يخص الأولياء والأنبياء لكن أحلامنا نحن لا تزيد على عادم يخرج ما فينا من ضغوط. لكن جوًا عامًا كئيبًا من التشاؤم والتطير كان يحيط بالمكان. هكذا أدرك أنه لن يستطيع النوم ثانية.

تبًا ..! سباتزانى الجـراح الإيطالى الرهيب ينتظره غدًا ليراقبه أثناء جراحة سرطان ثدى صعبة. العمل مع سباتزانى مرهق للأعصاب ، فهو بارع جدًا وسريع جدًا ، وعالى الصوت جدًا ... تشعر أنك تقف مع زيوس شخصيًا خاصة مع ضخامة الرجل. معنى أن تؤدى الجراحة وأنت مرهق لم تنم أنك سوف تتلقى الكثير من اللوم والسخرية ...

اتجه للتلفزيون وفتحه وراح يفتش فى المستقبل عن قناة بى بى سى أو سى إن إن ..

لماذا يشعر بهذا القلق والتوتر ؟ لا شك أن الأيونات تلعب دورًا فى هذا ..

❋ ❋ ❋

فى الصباح شرب جالونات من القهوة ، حتى صارت يده ترتجف كورقة. لا يهم .. يجب أن يكون متيقظًا ، لكن الرجفة ظلت معه حتى عندما وقف أمام سباتزانى العظيم والعـرق يبلل جبينه ، وهو يرمق الجرح الغارق فى الدم ..

صوت جهاز التنفس الصناعى الرتيب ، مع موسيقا فيفالدى التى يصر الرجل على سماعها أثناء الجراحات. أن السرطان منتشر فى هذا الثدى فعلاً ويحتاج إلى مبضع جراح حساس يلاحقه فلا يترك خلية واحدة منه. الجراحة التى ابتكرها الأمريكى العبقرى ويليام هالستد يومًا ما ، قد تطورت كثيرًا ..

يقول سباتزانى بصوته الجهورى :

ــ « أنت بطىء جدًا يا صبى .. أنت تتصرف مثل هالستد نفسه. قالوا عنه إنه بطىء لدرجة أن الجرح كان يلتئم من فوق بينما هو ما زال يعمل تحت !!.. »

قال (علاء) فى حرج :

ــ « جميل أن أفعل شيئًا مثل هالستيد .. »

ــ « كان هو يفعل هذا من فرط الدقة ، أما أنت فتفعل هذا من فرط الخوف ، ويدك ترتجف كذيل حية الجرس .. لقد رأيت مرضى شلل رعاش يجرون الجراحات ببراعة أكثر منك .. »

حتى وقد شاب جزء من شعر (علاء) ما زال الجراح الكبير مصرًا على أنه (صبى) . برغم هذا كان كل شخص فى وحدة سافارى يعشق هذا الرجل . إنه مثل جيديون وبارتليبه وشيلبى وهيلجا الشمطاء .. جزء أصيل من الوحدة ، فلو رحل أحدهم أو ماتت لتهدمت الوحدة فعلاً .

الواقع أن (علاء) نفسه صار من أهم أجزاء سافارى ، ومن دونه سوف تصير الحياة كئيبة فعلاً ..

بشكل ما انتهت الجراحة ، وتنهد سباتزانى ... كان متوترًا بحق . إن (علاء) يتحسن بلا توقف ، وبالفعل صار جراحًا ممتازًا . ليس بارعًا جدًّا فى الجزء النظرى من الطب ، لكن يديه رائعتان إلا أنه لا يصارحه بهذا ..

نزع (علاء) قفازيه الملوثين بالدم وألقى بهما فى سلة المهملات ثم نزع القناع ، وزحف إلى الخارج ليبدل ثيابه وهو يلهث .. ساعتان من الوقوف المتوتر ...

خرج بارتلييه بفانلته الداخلية التى يطل منها شعر صدره الأشيب . فوجه لكمة بقبضة عملاقة لقلب (علاء) كادت تقتله وهتف :

ـ « لا بأس يا صبى .. لقد تحسن مستواك نوعًا فصار سيئًا بعد ما كان شنيعًا !.. »

وانفجر فى الضحك ...

لحظة الاسترخاء بعد الجراحة وقدح القهوة والشعور بالخواء الجميل ... ليس أمتع من زوال مفعول الأدرينالين من دمك . لهذا نشوة لا تحققها أعتى المخدرات ..

هنا ظهر أحد الأطباء الإسبان الشباب ، ودخل إلى الاستراحة .. قال لـ (علاء) :

ـ « مكبر الصوت يناديك .. لا بد أن المدير يريدك .. »

يا للكآبة ...! لا بد أن (علاء) لم يسمع النداء ...

لكن الساعة الحادية عشرة صباحًا ، وهذا مستحيل .. المدير يستدعى فى السابعة مساء .. حتى لو أصابته نوبة قلبية ونادى (علاء) لينقذه ، فلسوف يحرص على أن يكون هذا فى السابعة مساء .

نهض (علاء) متثاقلاً إلى مكتب المدير ...

يا رب . لا تجعل باركر بالداخل .. ستكون هذه ألعن بداية لليوم .. (يوم ففيل) كما يقول الشباب ..

لكن باركر لم يكن هناك فعلاً .

كان المدير جالسًا بجسده الشحيم ينظر لشاشة الكمبيوتر .. فلما رأى (علاء) قال له :

ـ « هل عرفت أن براكستون قد مات ؟.. »

حاول (علاء) تذكر اسم براكستون . أنه يعرف اثنين ، فقال المدير :

ـ « خبير الصحة العالمية المختص بالأفاعى .. هل تذكر مغامرتكم فى (أداماوا ماسيف) مع القبيلة القادمة من الجابون ؟ لقد اضطررت وقتها لنفيك إلى كينيا لفترة. نفيتك أنت وبرنادت .. كان هذا قبل أن تصير مسز عبد العظيم .. »

كان هذا خبرًا مؤسفًا لكن علاقة (علاء) بالرجل كانت سطحية جدًّا .. أى أن الخبر لن يؤثر فيه أكثر مما تؤثر قراءة النعى فى آخر الجريدة .. لقد رأى وجوهًا كثيرة منذ ذلك الحين .. ومات كثيرون ممن عرفهم .

قال (علاء) فى ضيق :

ــ « هذا مؤسف .. أتبادل الخطابات معه عبر البريد الإلكترونى .. لكن غدته الدرقية لم تكن على ما يرام .. لا بد أنه أصيب بسرطان و... »

قال المدير فى غموض :

ــ « للأسف لا .. لقد مات بعضة أفعى سريعة السمية .. »

ــ « هذا مؤسف .. لكن هذا يحدث كثيرًا لدى من يربون الأفاعى . إن هذه الأشياء تفلت من القفص الزجاجى .. »

هرش المدير رأسه وهز لغده وقال :

ــ « لم يكن ممــن يربون الأفاعى . هــذا مجال عمله لكنــه لا يحتفظ بأفاع فى البيت .. لقــد وجدوا جثتــه جــوار الهاتف وعضــة ثعبــان فى ساعده ، كما وجدوا أفعى وثعبانًا فى شقته .. لا أحد يعرف كيف دخلا هناك .. »

قال (علاء) مفكرًا :

ــ « أنت تعرف بيوت هؤلاء الأمريكيين .. البيوت مثقوبة تقريبًا ويمكن لدب أن يدخل .. لا أعرف كيف تبدو البيوت فى أوريجون لكنها بالتأكيد تسمح بدخول الثعابين .. »

نظر له المدير فى شرود .. وقلب كفه .. ثم قال :

ــ « أنا قلق .. لا أحــب هــذا كثيــرًا . أرجــو أن تأخذ الحذر أنت وبرنادت .. »

ثم أضاف وهو يغلق جهاز الكمبيوتر :

ــ « نحن ننسى التقويم .. الأيام تمر سريعًا كأنها تلك الصورة لأوراق التقويم التى تطير فى الأفلام القديمة .... هل تذكر عام الأفاعى ؟!.. »

❋ ❋ ❋

4 ـ المريض ..

بودرجا لم يسمع هذه المحادثة ..

كان قد أنهى عمله فى وحدة سافارى قرب المساء . أنت تعرف أن بودرجا هو مزيج فريد من عامل وممرض ومترجم .. عندما تنفجر المياه من ماسورة الحمام ، فهناك سباك للوحدة لكنه يأتى متأخرًا ليجد بودرجا قد شمر عن ساقيه وراح يربط الماسورة . عندما تنقطع الكهرباء يظهر بودرجا من مكان ما ليبدل المنصهرات ، عندما تتعطل سيارة الوحدة فإن بودرجا يفتح الموتور ويعبث ليصلحها قبل أن يصل ميكانيكى الوحدة ..

إن بودرجا يفعل كل شىء فى العالم ، ويعرف كل شىء عن الأشياء الباقية .. وهو قادر على أن يخاطب قبائل الكيجانى والفولانى والكيكويو بسلاسة تامة . لا يعرف أحد ديانته بالضبط .. أحيانًا يتصرف كمسلم أو كمسيحى وأحيانًا تشعر أنه وثنى يعبد (أنكلانكولو) ..

لقد أنهى عمله فانتظر مازيمى زميله فى الوحدة كى يقله لبيته الصغير فى أنجاواندير . أنه يقيم جوار مسجد كبير فاخر تشتهر به المنطقة اسمه مسجد (لاميدو) .. نصف سكان أنجاوانديرى مسلمون ، والنصف الآخر ديانات متعددة لا حصر لها . مازيمى معه سيارة خربة عتيقة تتحرك بمعجزة ما ، ويستحيل أن تعرف نوعها لكن أغلب الظن أنها أول موديل للسيارة اللادا الروسية .

لبودرجا زوجة ووولدان . قليل من رجال سافارى من يعتقد أن لبودرجا حياة خارج الوحدة. أنه موجود دائمًا ولا يتكلم عن أسرته أبدًا .. ولا يشكو ..

لقد تعرض للموت مرارًا فى هذه المهنة ، لكن من حسن الحظ أنه لم يفعل.. إنهم يحبونه هنا ويثقون فيه ..

جاء مازيمبى أخيرًا ، ففتح الباب لبودرجا . ثم جلس خلف المقود وشغل المحرك .. أنت تعرف أن المحركات تحتاج إلى بعض السباب كى تعمل . لا يوجد محرك محترم يعمل من تلقاء نفسه ..

ـ « هلم يابن الـ .... هلم أيها القذر .. عليك اللعنة !.. »

كرو كرو كرو ..

نهض المحرك فداس مازيمبى على دواسة البنزين بقدمه المدسوسة فى صندل ، وتحركت السيارة. راح الرجلان يتكلمان عن كرة القدم .. كرة القدم تستغرق 70% من أى محاورة هنا ، بينما السيارة العتيقة تترجرج عبر شوارع المقاطعة .

سأله مازيمبى :

ـ « ألا تشعر بالتعب من هذه الوحدة ؟.. »

مد بودرجا يده إلى علبة تبغ صاحبه فسحب لفافة أشعلها ، وسحب نفسًا وسعل قليلاً ثم قال :

ــ « لا أعرف لنفسى مكانًا آخر .. أعمل هنا منذ خمسة عشر عامًا .. لا أعرف أن الناس تفعل شيئًا آخر .. »

ثم نظر للنافذتين الخلفيتين المفتوحتين وتساءل :

ــ « لا تنوى أن تصلح هاتين النافذتين ؟ لا يمكنك غلق الزجاج أبدًا .. »

قال مازيمبى ضاحكًا :

ــ « أتمنى أن أرى وجه اللص الذى سيحاول سرق كومة الصفيح هذه .. لابد أنه مجنون .. »

ضحك بودرجا بدوره ..

ثم توقفت ضحكته عندما أدرك أن مازيمبى لا يقود السيارة كما يجب . إنها تترجرج وتميل ذات اليمين وذات اليسار ..

ــ « ماذا يحدث ؟.. »

قال مازيمبى وهو يلهث :

ــ « لا أدرى .. لست بكامل وعيى .. ربما هو الــ .... »

كان يرتجف والعرق يسيل بغزارة من جبينه . بودرجا قد رأى غيبوبة السكر مرارًا ويعرف أن هذه واحدة على الأرجح . مازيمبى يعانى من داء سكرى غير قابل للعلاج ..

ــ « أعتقد أنك تعانى حالة نقص سكر فى الدم .. توقف حالاً .. »

بداية غيبوبة نقص السكر التى تجعل المريض يتصرف كأنه ثمل ... لا يمكن القيادة بحالة كهذه ..

ــ « أنا .. أنا .. أنا .. »

ترجل من السيارة وساعد صاحبه كى يجلس فى المقعد الجانبى ، ثم جلس هو خلف المقود. عليه أن يجد من يبيع العصير أو الحلوى بسرعة قبل أن يغيب مازيمبى عن الوعي. بودرجا لا يجيد قيادة السيارات لكنه يعرفها كأى شيء آخر .. لن يبهر الناس بقيادته لكنه على الأقل قادر على تحريك كتلة الحديد هذه مع عدم قتل أحد بها .

ــ « هلم يابن الــ .... هلم أيها القذر .. عليك اللعنة !.. »

كرو كرو كرو ..... كرو كرو كرو .....

الطريقة المثلى لتدوير المحرك كما تعلمها من مازيمبى ، ونظر خلسة لصاحبه ليتأكد من أنه حى .. ثم إنه نزع الخف وداس بقدمه السوداء الكبيرة على دواسة البنزين ..

انطلقت السيارة بمعجزة ما وهى تختنق كأنها طفل مصاب بالدفتيريا. وكل شيء فيها يترجرج لكن بودرجا يقودها عبر شوارع أنجاوانديرى الضيقة غير المرصوفة . لا بأس أبدًا بالنسبة لرجل يقود السيارة ثلاث دقائق كل عامين ..

دخل إلى شارع جانبى . هناك كان كشك صغير يبيع السجائر والعصائر والحلوى .

أوقف السيارة ثم هرع حافيًا إلى الكشك ليبتاع زجاجة عصير وبعض الكاراميل ، وألقى بعض الفرنكات للبائع ، ثم عاد جريًا للسيارة ..

كان رأس مازيمبى قد مال تمامًا إلى الجانب .. يبدو أنه فقد الوعى فعلاً .

لا مفر إذن من نقله لوحدة سافارى أو أى مستشفى قريب لحقنه بالدكستروز . إنه يطلق شخيرًا .. مد بودرجا فوهة زجاجة العصير تحت شفة صاحبه كأنه يغريه .

لكن مازيمبى لم يشرب ... وقد سقط رأسه للخلف وابيضت عيناه ..

ليس بهذه السرعة .. أصيب بودرجا بالذعر .. ربما كان الأمر يتعلق بنوبة قلبية .

مد يده تحت ساقى صديقه ويد أخرى أحاط بها كتفه وجره خارج السيارة وألقى به على الأرض فوق الغبار .. ثم راح يصفع خديه المبللين بالعرق ..

جاء اثنان من المارة وغادر البائع متجره وهو يحمل دنًا من الماء سكبه فوق مازيمبى كى يفيق فلم يحدث . وأدرك بودرجا بخبرته أن صاحبه قد مات ...

هذا غريب ..

الناس لا تموت بغيبوبة نقص السكر بهذه السرعة .

وفجـــأة رأى الدم ينز من ســـاق الرجل .. هناك موضع عضة واضحة هناك. ثقبان اخترقا اللحم .. لكن من أين ؟

ثم نظر إلى السيارة ذات الباب المفتوح فرأى ثعبانًا ينزلق ببطء نحو الأرض ..

هذا الثعبان هو الذى عض مازيمبى بلا شك . ومن السهل أن تعرف كيف دخل .. لقد تسلل من زجاج السيارة المفتوح وظل ينتظر فى المقعد الخلفى ، ثم بدأ الزحف ..

لم يكن بودرجا يفهم فى الثعابين ، لكنه يعرف على الأقل كيف تبدو المامبا السوداء التى تعيش فى حقول قصب السكر. تهاجم فى وضع ناشر مثل الكوبرا وعضتها تفرغ سمًّا يقتل خلال نصف ساعة ، وبسرعة فائقة حتى إنك لا تدرك أنك قد عضضت ... والسم من النوع الذى يدمر الجهاز العصبى ويؤدى لشلل الحجاب الحاجز ..

المامبا السوداء وأفعى الجابون أهم ثعبانين فى غرب أفريقيا .

المامبا ثعبان وليست أفعى .. لو كنت تتذكر الفارق فلسوف يريحنى هذا من الشرح .

كانت المامبا تزحف على الأرض بطولها الذى يقترب من مترين . وقد ظهرت الفئوس من مكان ما وانقض عليها المواطنون ...

حذار !.. إنها كالشيطان وهى تطير فى الهواء لتضرب الوجوه كالصقر .. وتلدغ أثناء طيرانها ...

لكن أحد الشباب هوى على الرأس فقطعه. انتفض الذيل قليلاً ثم همد الشيء المرعب .. ووقف الجميع يراقبون المأساة الملوثة بالغبار ..

كان بودرجا يفكر :

هذا الثعبان كان مستعدًا ليهاجم راكب المقعد الجانبى .. لو لم يصب مازيمبى بنوبة السقم هــذه لظــل بودرجا فى ذات المقعد ولتلقى العضة القاتلة ..

كان يرتجف .. هذا ثعبان لا يترك حقول قصب السكر فماذا جعله يغير سلوكه ويدخل السيارات ؟

* * *

5 ـ ناج بانشامى ..

حدث هذا منذ عام :

كان عليها أن تقوم بالطقس إلى نهايته .

لقد نشأت وسط الأفاعى والثعابين ، وقد دأبت على اعتبارها كائنات مقدسة.. لكن هذا الطقس خطر فعلاً . لقــد تضمخت بعطر الزهرة الذى ورثت سره عن أمها ، والذى تكلم عنه كتاب جاتاكا . خضبت كفيها بالحناء ورسمت على بطنها زهرة اللوتس .

تقف أمام الكاهن الأكبر بثيابه الحمراء القانية ولحيته الشعثاء المتدلية على صدره. تحنى رأسها وتضم كفيها كزهرة اللوتس ..

ــ « متأهبة أنت للفداء ؟.. »

ــ « متأهبة أيها الجورو الأكبر .. »

ــ « حتى لو ظفر بك الناجا ناجا ؟.. »

ــ « أنا لها أيها الجورو الأكبر .. »

هذه طقوس البانشامى المخصصة لعبادة آلهــة الأفــاعى . إنه اليوم الخامس من أمافاسيا .. الليــلة التى ينيرها القمــر فى شهر شرافانا المقدس ...

هذا هو يوم عبادة الثعابين ..

المشاعل فى كل مكان .. والوجوه ملطخة بصبغة حمراء تذكرك بالدم ..

تلتمع النيران فى العيون .. تترقرق ..

وقرب موضع الحفل تركع النساء المتزوجات يسقين الثعابين اللبن فى حفر صغيرة . بينما يجرى نهر باراميبيكولام المتفرع من نهر تشالاكودى عن قرب .

نحن فى ولاية كيرالا .. مركز عبادة الثعابين فى الهند . أى إننا فى أقصى جنوب الهند على حافة المحيط الهندى . كيرالا ذات طابع يختلف عن كل الهند ، وتجرى فيها شبكة كثيفة من الأنهار الاستوائية ...

أمس كان هناك طقس مهم فى النهر هو سباق الثعابين فى القوارب.. اسمه فالامكالى . لكن الليلة يبدأ طقس أشد إثارة وخطرًا ..

التماثيل فى كل مكان ..

هؤلاء قوم وثنيون فعلاً.. وثنيون بفظاعة ..

سوف تجد تماثيل عملاقة للكوبرا الناشرة ، ثم تمثالاً ضخمًا لإلهم شيفا . أن الإله شيفا هو الإله الوحيد الذى يضع ثعبان كوبرا حول عنقه ، لهذا يجب أن تجد الثعابين حيثما كان ..

تعرف أنه كانت هناك دائمًا كاهنة من أسرتها .. هناك جدة دائمة للإله (ناج ديفتا) ... وقد انتقل التراث عبر الأجيال .

جاء النـــاس جميعًا وجاءت النســـاء المتزوجـــات ــ كما هى التقاليد ــ وجاء الصبية .. لابد أن يرى الصبية هذا المشهد ..

باركها الجورو ووضع قطرة من سائل على جبينها ..

ثم إنها ركعت على ركبتيها وبدأت تزحف .. الناس تصنع لها دائرة واسعة لتتيح لها أن تتقدم .. تضم كفيها معًا وتزحف ..

يقوم أحد الرجال الأشداء بربط حبل غليظ حول خصرها .. حبل يسمح لها بالتقدم وهى بعد مربوطة بهم ..

هذا الطقس قامت به أمها وقامت به كل امرأة من جداتها لعدة أجيال ، واليوم هى تحمل هذا التراث ..

يبدأ العازفون عزف آلات وترية تطلق ذلك الصوت الشبيه بنياط قلب يتمزق .. الآلة التى كتب البيتلز أغنية (الخشب النرويجى) فقط كى يستعملوها .. وهناك من يدق على طبل ..

النساء ينظرن لها فى رعب ..

هناك تقف شجرة السنديان العملاقة التى تبلغ من العمر ثلاثة آلاف سنة هى من أقدم أشجار الأرض .. وأسفل السنديانة هناك باب كوخ من الجذور المتشابكة والخشب المتآكل .

تتقدم ميرا جوران على ركبتيها نحو الكوخ وهى تضم كفيها معًا ..

تعرف أن الناجا ناجا سوف تشعر بالذبذبات .. هى لن تسمع الموسيقا .. ثم تسمع حفيف أوراق الشجر .. إنها قادمة ..

تتسع الدائرة ويراقب الناس فى رهبة ما سيحدث .. أكثر من ساحرة أفاع تكومت ميتة وجروها بالحبال بعيدًا عن الشجرة ..

تظهر الناجا ناجا ..

الكوبرا الهندية الرهيبة تزحف فى بطء خارج الشجرة ..

تثبت نظراتها على الفتاة ، وتأخذ الوضع الناشر المخيف مرجعة رأسها للخلف ونافشة صدرها .. تتقدم ولسانها يخرج أمامًا وخلفًا ... س س س س س !!

تتقدم نحو ميرا ..

هنا انحنت ميرا وبسرعة خاطفة طبعت قبلة على فم الكوبرا ثم وثبت للخلف وعادت تراقب المشهد فى حذر .. الحقيقة أنا تحولت هى نفسها لكوبرا حذرة متحفزة اخرى ....

شهق الناس غير مصدقين .. وحبسوا أنفاسهم ..

ميرا تناور من جديد تنظر لعين الكوبرا .. تتمايل فتتمايل الكوبرا معها .. الكوبرا فى مستوى رأسها بالضبط ... تتأهب للهجوم ثم ..

تطبع ميرا قبلة أخرى على فم الزاحف الرهيب ..

لو أنها لدغتها فلن يجدوا وقتًا ليحضروا الترياق .. سم هذه الكوبرا يقتل خلال ثلاث دقائق ..

قبلتان !

بقيت قبلة واحدة ليكتمل العدد المقدس ثلاثة . وعندها تكون ميرا قد حققت الناج بانشامى .

تتقدم الكوبرا من جديد .. رقصة الموت بين كائنين تفصل بينهما ملايين السنين من الرقى .

تنحنى ميرا وتستجمع أعصابها وتحبس أنفاسها ثم تلثمها لثالث مرة ، ثم تبتعد بسرعة للخلف .. الكوبرا تواصل الزحف ..

لقد أنهت ميرا مهمتها لكنها لا تستطيع أن تبعد عينها عن رسول الموت هذا . لو حاولت حركة سريعة فلسوف تهجم الكوبرا بسرعة البرق ...

لهذا ظلت تتراجع ببطء ووجهها نحو الكوبرا .

لسبب ما شعرت بإرهاق وتخلت قواها عنها فسقطت على الأرض مغشيًا عليها وسط الدائرة ..

شهق القوم ذعرًا بينما الكوبرا تواصل الزحف .. أن الفريسة هشة جاهزة .. لكن الرجال شدوا الحبل بسرعة فراح جسد ميرا الدقيق يتدحرج فوق الغبار بعيدًا عن الكوبرا التى أطلقت فحيحًا غاضبًا مفزعًا وانتفضت مرة أخيرة ..

ثم ادركت أنها لن تلحق بهذا الجسد فتراجعت زاحفة إلى كوخها فى جذع الشجرة ، فما أن توارت حتى جلب أحد الرجال سلة مليئة بالفئران ورفع عنها الغطاء ثم قذف بها فى الفتحة وفر ...

الناجا ناجا سوف يتناول عشاءه ..

أما ميرا جوران فقد بدأت تفيق ..

النساء رحن يغسلن وجهها باللبن .. وعندما أفاقت كانت ترقد على الأرض جوار حفرة ثعابين تتلوى ، لقد انتهت مهمتها وقامت بالطقس الأهم فى ناج بانشامى . الإله (ناج ديفتا) راض عنها لأنها قبّلت الناجا ناجا فى ثغره ثلاث مرات ...

حياتها سوف تتخذ شكلاً جديدًا ..

* * *

6 ـ الضحية ..

الكونغو ؟؟ لن يرسلونى للكونغو !

هكذا صاح (علاء) عندما قرأ القرار الإدارى الذى ينتدبه إلى وحدة (سافارى –7) فى الكونغو لمدة ستة أشهر . الكونغو والجابون تشكلان حدود الكاميرون الجنوبية ، لكنه لم يذهب هناك قط . والكونغو تمثل له قلب قلب القارة الأفريقية . أفريقيا السوداء بالمعنى الحرفى ، حيث تتسلى الغوريلات بقضم مؤخرتك ، وتطاردك الخراتيت لتتوارى منها خلف شجرة ، فتظفر بك ذبابة تسى تسى ..

هذا أسوأ وقت ممكن ..

هرع يقابل باركر نائب المدير .. الوغد البريطانى الذى يذكرك بجنود المستعمرات ، بشعره القصير وشاربه ووجهه الأحمر المحتقن. كان هناك فى حديقة سافارى يصدر تعليماته لعدد من عمال الفلاحة . قال له (علاء) فى عصبية :

ـ « سيدى .. لم تعد صحتى ولا لياقتى تتحملان هذه المغامرات .. أنا لم أعد شابًّا ، وصرت رب أسرة .. جدوا شخصًا آخر أكفأ منى وأقدر .. »

ابتسم باركر فى سماجة قال :

ـ « للأسف ليس بوسعى عمل شىء .. هذه الأوامر تأتينا من المركز الرئيس وعلينا أن نمتثل .. »

ــ « والخيار ؟.. »

ــ « الاستقالة طبعًا .. إن لك حرية الاستقالة فى أى وقت ولسوف نقبلها بكل سرور .. »

تمنى (علاء) لو يخرج ورقة يكتب عليها استقالته ويلقيها فى وجه هذا الرجل ثم يرحل وهو يلقى سبة ، لكنه احتفظ بهدوئه .. أولاً هذا ما يريده باركر بالذات .. ثانيًا يجب أن يصير أكثر حكمة وفطنة. الوضع الاقتصادى فى مصر لا يسمح له بالعودة حاليًا ، وهو مسئول عن أسرة . يجب أن يضغط على كبريائه قليلاً. فى النهاية هناك من يدفعون مالاً كى يروا الكونغو ... هو سيراها مجانًا ويتقاضى مالاً ... زائير كما كان اسمها حتى رحل موبوتو فعادت الكونغو ..

لا توجد وحدة سافارى فى مصر وإلا لتمنى أن ينتدبوه هناك. للأسف لا تتعامل سافارى إلا مع البلدان الحارة ولا تتعامل مع البلاد تحت المدارية .. لو كانت هناك وحدة سافارى فى المغرب لصارت الحياة جنة !

ذهب لبرنادت فى قسم الأطفال ليبلغها الخبر اللعين ..

كانت منهمكة تلقى محاضرة للأطباء الشبان عن الالتهاب الرنوى ، فلما انتهت المحاضرة أخبرها بما قيل له ، فهزت رأسها :

ــ « أنت ذهبت إلى أماكن أسود من هذا . لا مشكلة .. »

ــ « يخيل لى أنه لا أحد يعود من الكونغو .. »

ــ « أنت ستعود .. »

كان يريد أن يخبر أى واحد .. أن يبكى على أى كتف .. معلوماته عن الكونغو شحيحة وكلها سيئ جدًا . لا يذكر سوى صورة لومومبا مقيدًا وهم يجرونه بحبل من رقبته فى ليوبولدفيل ثم يطلقون الرصاص على رأسه ..

السفر بعد شهر. عليه أن يستعد .. كما أنه سيتلقى المزيد من اللقاحات لأن الكونغو تختلف عن الكاميرون . هكذا واصل عمله فى قسم الجراحة .. هذا يوم معتاد ..

عند العصر تلقى استدعاء من مكتب المدير بارتلييه. فذهب إلى هناك متوترًا .. ربما تعلق الأمر بانتداب الكونغو ، ولربما تعلق بمشاجرته أمس مع أبراهام ليفى اللعين. فى كل مرة يتشاجر فيها مع ليفى يلعب هذا أسلوب الضحية وينجح فى كسب مؤيدين .

حيا السكرتيرة وقرع الباب ليدخل ..

كان المدير جالسًا كالعادة .. من النادر أن ترى بارتلييه واقفًا. كأن جسده الشحيم جزء من مكونات الغرفة ، لكن وزنه قد تدنى كثيرًا بلا شك بعد جراحة القلب وبعد الوقوع فى الحب ..

لكن الغريب فى الأمر هو أن بودرجا هنا. بسحنته التى لا تشيخ ، وثيابه المميزة التى هى أقرب لسترات الجيش الخاكية والصندل والقلنسوة على رأسه ..

ماذا يفعل بودرجا فى مكتب المدير ؟

الأغرب كان ذلك الشيء الموضوع على المكتب فى كيس بلاستيكى كبير .

كان هناك ثعبان فى الكيس يتدلى نصفه العلوى للخارج .. ولم يكن له رأس .. ثعبان ليس صغير الحجم .. من الواضح أن طوله متران أو أكثر ..

شعر (علاء) بشىء مألوف كئيب فى هذا كله ، وتذكر كلمات المدير أمس ..

قال بارتلييه :

ـ « كما ترى يا (علاء) .. لقد نجا بودرجا بمعجزة .. هذه هى المامبا السوداء .. »

قال (علاء) وقد تذكر مغامرة سابقة مع هذا الثعبان :

ـ « بودرجا كان فى حقل لقصب السكر ؟.. »

قال بودرجا وقد اتسعت عيناه من الرعب :

ـ « لا دكتور .. هذه تسللت لداخل سيارة مازيمبى وكمنت هناك ثم خرجت وعضته .. »

لم يكن (علاء) يعرف من هو مازيمبى .. غالبًا هو أحد موظفى الوحدة أو الفنيين . لكن فكرة ثعبان المامبا الذى يدخل السيارات بدت له غريبة . علمه براكستون أن هناك أفعى واحدة تعشق دخول السيارات من النوافذ المفتوحة هى (بومسلانج) . لكن هذه مامبا سوداء .. لا شك فى هذا ..

ـ « وهل مازيمبى هذا حى ؟.. »

قال بودرجا وقد دمعت عيناه :

ـ « مات خلال دقائق دكتور .. هذا مؤلم .. أمه هى قابلة ابن عمى .. ماميدا ذات الدجاجات الخمس .. »

لم يكن (علاء) مهتمًّا بتاريخ أسرة بودرجا ومن كان قابلة أولاد عمه .. ما كان يعنيه هو أن الرجل قد مات. مات بسم أفعى تتصرف بشكل غير معتاد ..

قال بارتلييه فى قلق :

ـ « هكذا يا (عــلاء) .. براكستون .. ثم بودرجا .. كل هــذا خلال أيام .. »

قال (علاء) فى لا مبالاة :

ـ « بودرجا حى يرزق .. »

قال بودرجا وهو يمط شفتيه الغليظتين :

ـ « أعتقد أننى نجوت بالحظ فقط دكتور .. لقد كانت هذه الطلقة موجهة لرأسى فأصابت مازيمبى .. »

وفجأة انفجر فى البكاء فراح يتمخط ورفع قميصه ليفرغ أنفه فيه :

ـ « مازيمبى واصديقى !... يا من كانت أمك قابلة ابن عمى .. لقد أوصلتنى بسيارتك مرارًا ، وكنا نذهب معًا لماما ماجيبورو .. »

قال (علاء) للمدير كى ينهى المشهد الدرامى وكل هذا المخاط :

ـ « سيدى .. لا أعرف ما ترمى له .. »

قال بارتلييه :

ــ « كنا نتكلم عن عام الأفاعى .. أنه لم يأت بعد .. ما زالت أمامه ثلاثة أعوام ، وهناك مشاكل قانونية تحيط بقبيلة أودجيلا بعد ما أثبتنا أنها قتلت ضحايا بشرية على أرض أداماوا .. لن يسهل عليهم العودة للكاميرون . لابد أنهم فى الجابون الآن .. لكن فكر معى .. »

ومد يده يفتح علبــة ميــاه غازية .. فوششش ! ثم طــوح واحدة لــ (علاء) وأخرى لبودرجا .. وشرب من علبته فسال خيط أصفر على ذقنه ...

قال وهو يجفف الخيط :

ــ « ما الذى يجمع بين براكستون وبودرجا ؟ وما سبب هذا السلوك العجيب للثعابين ؟.. »

قال (علاء) مفكرًا :

ــ « هذا غريب فعلاً . لكنه ليس دليلاً .. »

كان يتمنى ألا يكون هذا صحيحًا .. كان يدعو الله ألا يكون هذا صحيحًا .. لكنه فى قرارة نفسه كان يفكر مثل بارتلييه ...

قال بارتلييه :

ــ « تلك الساحرة اللعينة توعدتك بالانتقام .. »

* * *

الهليوكوبتر تبتعد وترتفع بينما رجال القبيلة غاضبون يلوحون بالرماح . ميرا جوران الحسناء ثابتة تنظر لى فى ثبات ، ثم تكور شفتيها وتضم أناملها فى شكل قبلة ترسلها لى عبر الهواء .. قبلة هى أخطر تهديد تلقيته فى حياتى .

* * *

لقد قتل (علاء) الطوطم الخاص بتلك القبيلة ، وهى جريمة تتجاوز القتل بكثير .. لا يكفى هؤلاء أن يموت .. لا بد من العذاب الأليم قبل الموت .. لا بد أن يتوسل من أجل الخلاص..

لسبب كهذا تم ترحيل (علاء) وبرنادت لكينيا لفترة من الوقت ، ثم بدا أن الأمور هادئة .. ذهب (علاء) لجنوب أفريقيا ثم عاد .. الحياة رتيبة ولا شىء يحدث ....

لكن فجأة بدأت هذه الفقاقيع تطفو إلى السطح ...

هل تميزت تلك القبيلة بالصبر وانتظرت كل هذه السنين ؟

قال بارتلييه :

ــ « هل تعرف أين (ميرا ــ جوران) الآن ؟.. »

قال (علاء) :

ــ « لا أحسب لها مكانًا غير الجابون ... ربما تذهب للهند حيث بلد أمها ، لكن مستقرها هو الجابون .. »

ــ « هل يمكن العثور عليها ؟.. »

ــ « مستحيل .. البحث عن ساحرة أفاع فى بلد بأكمله .. هذا حديث غير منطقى ، خاصة أنها بلا عنوان ولا رقم هاتف ولا صفحة فى فيس بوك .. إنها فوق المسافات والزمن .. إنها خلف هذا كله .. »

فكر بارتلييه قليلاً ثم قال فى تعاطف :

ــ « هل ترى أن تنفيك أنت وبرنادت وبودرجا إلى بلد آخر لفترة كما حدث من قبل ؟.. »

قال (علاء) :

ــ « عندنا نقول أن ما أخطأك ما كان ليصيبك .. على كل حال أنت رأيت أن براكستون مات وهو فى قارة أخرى يفصلها الأطلنطى عنا .. ثم إننى منفى للكونغو أصلاً بعد شهر .. منفى وحدى طبعًا .. »

يخرج بارتلييه من وراء مكتبه كأنه ديناصور غاف .. يترجرج ... لحمه يرتد لمكانه بالقصور الذاتى ...

ينفض الغبار عن نفسه .. يلهث .. يمشى نحــو (علاء) وبودرجا ويوصلهما للباب قائلاً :

ــ « خذا الحذر .. كما نقول نحن : لا تستطيع أن تكون حذرًا أكثر من اللازم .. ليعن كل واحد بنفسه ، وليحرص على إبلاغ الأمن لو شعر بشىء مريب .. »

❋ ❋ ❋

7 ـ المتســـلل ..

عاد بسام بو غطاس من إجازة فى تونس ..

هذا الفتى الظريف متوقد العواطف حار الدماء ، الذى تشع عيناه صدقًا ونبلاً .. فقط هناك حاجز اللغة التى تعوق (علاء) .. عندما يتكلم بسام بالعامية التونسية بسرعة ، يضيع (علاء) ويتوسل له كى يتكلم بالفصحى أو الفرنسية لأنه يتكلم بسرعة (بارشا) ..

عاد بسام محملاً بأشياء حميمة جدًا من وطنــه ، كما أحضر بعض الحلوى والأطعمة المعدة للطهو بسرعة ، وبالطبع زيت الزيتون ...

الأهــم أنه تــزوج .. لكن زوجتــه هنــاك فى الوطن . عندما تترك زوجتك بعيــدًا فأنت تشتاقها جــدًا وتتحــول إلى حلم .. تتضخم .. تبدو أجمل وأرق وألطــف .. ذكر اسمها يهبــط على روحــك كالمــاء المثلج على لسان صدى فى نهار حــار... رائحتها .. كلماتها . لفتاتها .. كــل شىء ...

أدرك (علاء) أنه محظوظ .. هو على الأقل لن يقلق على زوجته. لكن هناك بالتأكيد مزايا لأن تكون زوجتك نائية ، أهمها أنك تحبها جدًا وبلا تحفظ وقتئذ .. برنادت قريبة وهذا مطمئن ، لكن هذا كذلك يفسح مجالاً ممتازًا لسوء الفهم والشجار والعصبية والملل .. لا أحد يتشاجر مع معنى بعيد ...

دعا بسام (عــلاء) إلى سهرة فى غرفته بســافارى . هــذه غرفة ضيقة ذات لمسة عزوبية لا شك فيها ، وبالتالى فلا مجال لبرنادت فى هذه السهرة .

غرفة بسام أفضل من غرفة (علاء) قبل الزواج . واسعة مريحة وفيها جهاز تكييف لا بأس بقوته ، بينما غرفة (علاء) كان فيها جهاز تكييف معطل ومروحة سقف تحدث ضوضاء لا تتوقف ..

جلس (علاء) على تشيز لونج جوار الفراش ، بينما قام بسام بتشغيل بعض أغانى الراى على جهاز الكمبيوتر . هناك مطبخ صغير ملحق بالطابق .. أى أن عدة أطباء يستعملونه ، وقد قام بسام بإعداد بعض الكسكسى الذى هو الخبز اليومى لأهل المغرب العربى .. تركه لينضج ثم عاد إلى (علاء) .

ــ « تبدو مهمومًا ؟.. »

قال (علاء) فى ضيق :

ــ « نفونى إلى الكونغو .. لا أريد الذهاب .. »

قال بسام :

ــ « أعرف ما تشعر به .. ما يضايقك أكثر هو شعور المسمار .. المسمار الذى يدسونه فى أى مكان من الآلة العملاقة ولا يبالون برأيه .. »

ــ « تمنيت أن أصل لمرحلة المسمار الثابت الذى لا يمكن نقله .. »

كان (علاء) يتخيل نفسه أشيب الشعر منحنى الظهر ، لكنهم مصرون على أن يذهب إلى سيراليون ليواجه وباء ينتقل من القردة مثلاً .. لن يتركوه يستريح أبدًا ..

أحضر بسام جهاز تابلت صغيرًا ، وراح يعرض صورًا من تونس الجميلة . تذكر (علاء) باسمًا أيام ألبوم الصور المزخرف بالورود والذى تعطره الخطيبة أو الزوجة وتريه لصديقاتها. اليوم صار الأمر رقميًا خاليًا من الشاعرية لكنه عملى ...

بسام مثل (علاء) كانت له أونوابا الخاصة به .. فتاة سمراء رشيقة بارعة الحسن تضع قواقع فى شعرها ، وتعيش فى قرية من قرى الفولانى اسمها (الفا أومار) ــ غالبًا معناها (الفاروق عمر) ــ واسم الفتاة جميل .. فطوماطا .. لكن زيجة كهذه كانت مستحيلة ...

المرء يلقى فراشات رائعة الحسن طيلة الوقت وهو يمشى فى المرج ، لكنه لا يستطيع اقتناءها .. فقط يتنهد .. ثم يواصل المشى .

راح (علاء) يفر الصور بأنامله .. بينما انهمك بسام فى نقل الكسكسى الساخن بالخضر واللحم من المطبخ ، ثم أعد طبقين وأعد زجاجتى مياه غازية ، ووثب ليتربع على الفراش جوار (علاء) هاتفًا :

ــ « اللحظة المقدسة .. الطعام نشوة دائمة لا تذبل أبدًا .. »

لم يكن (علاء) جائعًا لكن الرائحة ومنظر الأطباق جعلا لعابه يسيل ..

هكذا مد يـــده ليتناول ملعقـــة ، وراح الصديقان يأكلان .. بســـام يغرق (علاء) فى سيل من الثرثرة الظريفة ، لكنه من حين لآخر ينسى الفرامل التى يضعها على نطقه ويتكلم بسرعـــة بلهجة تونسية فلا يفقـــه (علاء) حرفًا ..

نهض (علاء) حاملاً طبقه وكوبه واتجه للمطبخ كى يغسله ، ثم وضع براد الشاى على الموقد ليغلى الماء ...

ثم إنه عاد حافى القدمين إلى الغرفة حيث كان بسام ينهى آخر ملاعق فى طبقه ..

هنا هتف (علاء) وقد تصلب :

ـــ « لا تتحرك !.. »

نظر له بسام فى دهشة .. هل جن (علاء) ؟.. ما سر هذا التحول الغريب ؟ لماذا يقف على الباب ولماذا ينظر لأعلى فوق كتفه ؟

هتف (علاء) من جديد :

ـــ « تحرك ببطء .. ببطء وتعال جوارى ... لا تنظر للخلف .. »

بالطبع نظر بسام للخلف لأن الطلبات من هذا النوع تكون دعوة صريحة للنظر. عندها رأى جهاز التكييف (الشباك).. جهاز التكييف الواقع فوق الفراش ..

كانت أفعى تنسل خارجة من جهاز التكييف فى نعومة .. وقد تدلى رأسها ونصف جسدها خارجًا .. بينما لسانها يبحث فى جشع عن شىء ...

لم تكن ضخمة .. لم تكن كبيرة الحجم وهذا سهل مهمتها عبر جهاز التكييف ..

الحركة البطيئة التى عاشت بها الأفاعى منذ فجر التاريخ .. الزحف المصمم الشرير الذى يبعث القشعريرة فى النفوس ..

تذكر (علاء) على الفور رواية العصابة الرقطاء قصة شيرلوك هولمز .. لقد أرغموا الوريثة الثرية على النوم تحت فتحة التهوية ، وفى وقت معين من الليل ينساب ثعبان سام عبر الفتحة ليعضها ويقتلها ...

هذا هو نفس الموقف تقريبًا ..

بسام كان قد ابتعد ووقف جوار (علاء) وهو يرتجف ..

لم يكن (علاء) يفهم فى الأفاعى كثيرًا لكنه خمن من ذكرياته أن هذه أفعى راسل .. أفعى راسل التى تنتمى لأفاعى الآدر .. أفعى راسل لا توجد إلا فى جنوب شرق آسيا ، وقد أثار وجودها فى غرب أفريقيا علامات استفهام كثيرة دعتهم لزيارة قبيلة الأفاعى تلك ..

كان هذا منذ سنوات ..

اليوم يتكرر المشهد نفسه .. ما معنى هذا ؟

معناه يستطيع أن ينتظر قليلاً .... لا بد من عمل شىء الآن .

صاح بسام :

ــ « لنفر ونغلق الباب عليها قبل أن ... »

لكن (علاء) كان قد ركض إلى المطبخ وعاد ببراد الشاى بما فيه من ماء يغلى ، ثم فتح الغطاء وبحركة واحدة طوح بالمحتوى على الشىء الزاحف على الجدار ..

كان المشهد مروعًا طبعًا وسقطت على الأرض فوق الفراش غارقة فى الماء الساخن وراحت تتلوى وترتجف ..

ثم إنها انزلقت للأرض وحاولت أن تفر تحت الفراش ، لكن (علاء) عاجلها بضربة بالحذاء الذى كان قد نزعه ووضعه فى مدخل الغرفة .. ثم ضربة أخرى ..

هذه المرة كان يضرب لينهى آلامها لا ليتقى شرها .. يجب ألا تتعذب أكثر ...

فى النهاية همد الشىء المخيف ...

جلس (علاء) على السجادة يلهث عند قدمى بسام ...

لقد ازدادت الأمور خطورة فعلاً ...

هناك شىء يحدث وبارتلييه محق بالفعل ..

***

8 ـ الزوجـــة ..

عملية فحص مرهقة لوحدة سافارى قام بها فريق الصيانة. وكما قال له جون يانيك فنى التكييف :

ــ « لحسن الحظ أن هذا ليس تكييفًا مركزيًا وإلا لكان على أحدنا أن يزحف ليتفقد الشبكة كلها .. »

سأله المدير :

ــ « وكيف دخلت الأفعى إذن ؟.. »

ــ « بالطبع هناك من دسها خلف (الكومبرسور) .. ما كانت لتقدر على التسلل هناك .. حتى الصراصير تجد صعوبة فى عبور الكومبرسور للوصول للوحدة الداخلية .. »

ــ « أنت تعتقد أن هذا بفعل فاعل ؟.. »

ــ « لا يمكن ألا يتم إلا بفعل فاعل .. »

دس (علاء) يده فى جيبه وقال :

ــ « بالطبع يا سيدى .. هــذا لا يحتاج لذكاء كبيــر .. أفعى لا توجد إلا فى جنوب شرق آسيا ، وفجأة تتسلل لغرفة طبيب فى الكاميرون . لا تقل إن البيئة تغيرت لهذا الحد .. »

حقًا كانت هناك تغيرات بيئية مريبة .. ذات مرة فقس بيض دود القز الذى يحتفظ به (علاء) فى علبة من ورق مقوى تحت فراشه . كان فى الصف السادس الابتدائى ، والبيض فقس فى ديسمبر بسبب التغيرات المناخية !.. كان مستحيلاً أن تجد ورق توت ومات الدود كله جوعًا لأنه لم يحب ورق الخص !

التغيرات المناخية تفسر الكثير لكنها لا تفسر ظهور أفعى متخصصة فى عض الفيتناميين والتايلانديين لتعض الأفارقة والأطباء التونسيين ..

أمر المدير عمال الصيانة بالانصراف فانصرفوا ..

أحدهم قال لصاحبه على الباب كلمة فانفجروا يضحكون .. لا بد أنهم يسخرون من جهاز التكييف ذى الأفاعى ..

أغلق المدير الباب ثم أمر (علاء) وبسام بالجلوس .. جلس هو على الأريكة وجلس الطبيبان على الفراش .. بسام فى يده لفافة تبغ فهو قد صار مدخنًا ثقيلاً منذ فترة .. لم يعترض المدير لأن الظروف لا تتحمل الضبط والربط .. ثم إن هذه غرفة بسام على كل حال ..

حاول المدير أن يضع ساقًا على ساق فلم يقدر بسبب بدانته .. قال سائلاً :

ـ « وبعد ؟.. »

قال (علاء) فى قنوط :

ـ « لا شىء يمكن عمله .. الأمر يتجاوز المنطق .. »

ـ « هل ترى أن نسرع فى إجراء نقلك للكونغو ؟.. »

فكر (علاء) قليلاً ثم قال :

ـ « لا أحسبنى قادرًا على الفرار يا سيدى .. لاحظ أن الأفاعى وصلت لبراكستون فى أوريجون .. »

وهرش رأسه مفكرًا :

ـ « ثم إن الأمر يتجاوز المنطق .. لا أحد يقدر على التواجد فى كل مكان ودس كل هذه الثعابين .. »

ـ « وهل ننتظر وفاتك ؟.. »

غطى (علاء) وجهه مفكرًا وحك لحيته ثم قال :

ـ « فعلاً لا أعرف .. لا أستطيع التفكير .. »

ثم نظر لبسام متسائلاً :

ـ « هل ترغب فى قضاء الليل عندى ؟ إن هذه الغرفة تحمل رائحة الموت والخطر .. »

نظر بسام إلى الدم على الأرض من جراء تهشم رأس الأفعى .. وإلى بقعة الماء الساخن على الملاءة . فعلاً لم تكن الحجرة محببة بأى شكل .. يجب أن تخضع لعملية تنظيف دقيقة مع غسل الأرضية وتبديل الملاءات ..

قال بسام وهـو يجمع حاجياته .. منامته ومنشفته وفرشاة أسنانه والمشط فى كيس :

ــ « سوف أبيت عندك الليلة ما دمت تدعونى .. »

نهض بارتلييه وسوى معطفه وقال وهو يغادر الغرفة اللعينة :

ــ « نلتقى صباح غد يا (علاء) .. »

***

للمرة الأولى سيبيت بسام عند (علاء) .. لم يحدث هذا منذ أيام العزوبة. هذا يعطى للحياة صبغة جديدة مليئة بالحيوية .. لن تكون هذه مجرد ليلة رتيبة أخرى. التجديد .. التجديد ..

وقد أخبر (علاء) برنادت بقدوم الضيف ، فرحبت به .. كانت قد تعلمت بعض العادات الشرقية ، ومنها أن الناس قد لا تتحرك طبقًا للمواعيد. يمكن أن يأتى الزوج بقريب أو صديق بلا موعد ، وعليها أن تقبل ذلك ..

لم يكن هنالك داع لتنظيف شىء ، فالبيت الصغير أنيق نظيف.. وبرنادت نفسها كانت تلبس ثوبًا بيتيًا أنيقًا نظيفًا وتدس قدميها فى خفين من فراء ، مما جعلها كلوحة تحمل عنوان (الراحة النفسية) ..

كما قال (علاء) مرارًا كان هذا البيت أقرب لفيلا صغيرة بحديقة ملحقة بوحدة سافارى .. هناك أكثر من وحدة مماثلة متلاصقة لتقيم فيها الأسر .. الأطباء المتزوجون من طبيبات أو الذين جاءوا بأسرهم ..

ــ « بسام سيمضى الليل معنا يا برنادت .. »

أخبرها (عـلاء) .. وأضـاف أنه لا داعى للعشاء .. لقـد تناولا الكسـكسى .. صـحيح أنه تحـول الآن إلى قـارورة حمـض فى معـدة كل منهما بعد توتر الليلة ، لكنه على الأقـل يبقيهما بلا جـوع لفترة طويلة ..

تساءلت عن سبب توترهما فقال (علاء) :

ــ « فيما بعد . فيما بعد .. »

لم يكن قد أخبرها بحرف مما رأى وسمع .. لا داعى لأن تموت رعبًا .. فقط طلب منها أن تعد لهما بعض الشاى ..

كانت الساعة الثانية عشرة مساء عندما بدأ الطبيبان يتثاءبان .. لقد حان وقت النوم .

نهضت برنادت فأخرجت سريرًا سفريًا صغيرًا من النوع الذى تم طيه وفرده عند الحاجة ففردته فى الغرفة الصغيرة الملحقة. على بعد أمتار من فراش سارة الصغيرة التى نامت منذ ساعات ..

ــ « لا تقلــق .. هى لا تصــحو أبدًا قبــل الثامنــة صــباحًا .. لن تزعجك .. »

مال بسام ليلثم الخد الناعم الصغير .. ثم قال :

ــ « لا يمكن لملاك كهذا أن يضايقنى .. »

نائمة فى فراشها الدافئ الجميل ، تحتضن ضفدعًا أخضر من القماش .. أشكال من البلاستيك معلقة فى أرجوحة فوق الفراش تعبث هنا وهناك مع الهواء .. وسادة عليها سنوهوايت وحرام عليه الأقزام السبعة . السلام فى صورة طفلة ...

تمنى (علاء) لو أنه انكمش ليندس جوارها وينام بهذا العمق.. قال لبسام موبخًا :

ــ « يكفيك تقبيلاً .. إن شاربك الكث سيوقظها .. »

كانت برنادت قد فرغت من وضع الأغطية على الفراش وقالت لبسام :

ــ « هنــاك حــرام إضافى لو شــعرت بالبــرد .. أتمنى لك أحــلامًا سعيدة .. »

قال (علاء) وهو يوارب الباب :

ــ « تصبح على خير .. تذكر .. لا تدخين جوار الطفلة . لو اضطررت للتدخين اخرج للحديقة لتدخن سيجارتك .. »

قال بسام وهو يفك أزرار قميصه :

ــ « لا تقلق .. لقــد أنسانى الذعــر شهوة النيكوتين .. ولا تنس أن توقظنى صباحًا فى السابعة لأن عيادة الأنف والأذن والحنجرة مسئوليتى غدًا .. »

ــ « سأحاول إذا استطعت أن أصحو !.. »

وأغلق الباب بينما ارتدى بسام منامته ..

* * *

9 ـ الصديق ..

تنظر من فرجة الباب ..

ترى الظلام يغمر البيت وكأن الأضواء قد أطفئت .. ضوء تلو آخر ..

السيناريو المتكرر منذ جاءت هنا بين نور وظلام وظلام ونور ، لكنها تدرك أن الليلة هى الليلة .. أوامر التحرك قد صدرت لها وعليها أن تنفذ ..

تزحف بحركتها البطيئة نحو الفرجة ولسانها يخرج ويدخل بلا توقف.

إنها جوعى .. ظلت هنا عدة أيام تراقب وتنتظر ولم تجسر على قنص فأر أو حتى التهام حشرة.. لا يجب أن تبدد سمها .. لا بد لهذين النابين أن ينغرسا فى لحم بشرى طازج ..

تخرج من الفرجة لتجد أنها تزحف فوق بساط خشن نوعًا . هذا مكان نظيف طيب الرائحة يختلف تمامًا عن القبو المغبر الرطب ..

تزحف فوق خف مقلوب على الأرض. ثمة لعبة أطفال تشممتها ثم واصلت رحلتها ..

ظلام فى كل مكان ... لكن الأفاعى تعتمد على حواس أخرى.. وأهم حواسها البحث الحرارى . أفعى الجابون المخيفة تفتش عن فريسة .. قرناها يتوهجان فى ضوء خافت ..

إنها فى الردهة .. لا تعرف هذا لكنها الحقيقة ..

هناك غرفة ذات اليمين وغرفة ذات اليسار ..

يمكنها أن تختار .. تدرك بحواسها الخارقة أن هناك اثنين فى كل غرفة ، لكنها تشعر بهشاشة مغرية فى الغرفة عن اليمين .. الضحية سهلة واهنة ..

هكذا رفعت رأسها الشرير ذا الخط البنى وفتحت فاها كاشفة عن نابيها العملاقين .. أضخم نابين فى غرب أفريقيا وربما العالم كله ..

تزحف نحو الحجرة اليمنى .. الباب موارب ..

تدفعه برأسها المثلث الصغير وتزحف فى الظلام.

هى لا تسمع طبعًا قرقرة الطفلة وهى تحلم وشخير بسام الذى يجعل شاربه يهتز ، لكنها تشعر بأنفاس النائمين ...

بسام من الطراز الذى ينام على ظهره ويختنق بسهولة ، لكنه مصمم على النوم على ظهره بعناد .

وقفت فى منتصف الغرفة رافعة رأسها وراحت تتلفت حولها ..

الضحية الهشة صغيرة الحجم ستكون صيدًا سهلاً بالتأكيد. زحفت إلى المهد وبدأت تتسلق الحاجز الخشبى على جانب الفراش ..

سوف تعض عضـــة واحـــدة طويلة جدًا تفرغ فيها كل ما فى غدتها من سم ..

سوف تكون السيدة راضية .. النداء الغريزى الذى لا تعرف من أين يأتى يكبلها فلا تقدر على المقاومة .

هنا انتفض الجسد الآخر وهب من الفراش ..

***

لم تسمع ما قاله ولو سمعت لما فهمت حرفًا ..

كان بسام متوترًا وقد رأى كابوسًا مرعبًا بمجرد أن أغمض عينيه وغاب فى عالم النوم المتناقض .. من الصعب أن يرى المرء أفعى تخرج من فتحة التهوية ، وقد ظل هذا المشهد يلاحقه كلما غاب فى عالم الحلم. فى النهاية هب جالسًا وحلقه جاف .. وراح يتلو المعوذتين وآية الكرسى ..

لن يقدر على النوم ..

ربما كان من الأفضل أن يخرج ويدخن سيجارة فى الخارج كما طلب (علاء) . (علاء) لم يطلب منه التدخين .. لكنه طلب منه التدخين بالخارج .

مد يده إلى المقعد الصغير الذى وضعه جوار الفراش فتناول علبة التبغ والقداحة ، ثم نهض حافى القدمين وأضاء النور الخافت الذى نطلق عليه (سهرية) فغمر الحجرة ضوء شاحب ..

تثاءب واتجه إلى الباب ..

غريب أنه نسى أن يغلق الباب قبل النوم ..

ثم حانت منه التفاتة سريعة إلى فراش الطفلة سارة ..

للحظة حسب أن هذا جزء من الكابوس الذى كان يحلم به ، ثم أدرك أنه حقيقى ..

فى الضوء الشاحب ، هناك ثعبان ضخم ـ فى الواقع أفعى ـ زحفت على الأرض ثم تسلقت الحاجز الخشبى على جانب الفراش ، وهى الآن فى مستوى رأس الطفلة تتأمل وجهها فى جشع ولسانها يخرج ويدخل ..

احتبس الصراخ فى حلقه .. لم يعرف ما يقول أو يفعل ..

قرأ أسطورة هرقل فى الماضى وكيف أرسلت له هيرا ثعبانًا وهو فى المهد يزحف نحوه ، لكن أهل الطفل فوجئوا عندما رأوا الطفل الرضيع يعتصر عنق الثعبان حتى خنقه ..

يمكن أن يحدث هذا فعلاً عندما يكون ابنك هو هرقل ، أما هنا فلا فرصة لسارة على الإطلاق .

فقط وجد الحذاء على الأرض حيث خلعه.. انحنى والتقطه وهو لا يبعد عينه عن الرأس المثلث الذى يحمل الموت ..

الفرصة هى 50% أن يضرب الحذاء الثعبان ، وفرصة مماثلة أن يهشم رأس الطفلة ..

يا الله ! ارع العاجزين المذعورين الذين لا يملكون سلاحًا ..

احم الطفلة يا الله فلا ذنب لها ..

وطار الحذاء فى الهواء ، ليمر على بعد سنتيمترات من رأس الطفلة ليضرب الرأس الشرير المثلث .. لقد أجاد التصويب ولا يعرف إلا الله كيف ..

سقط الجسد الثقيل على الأرض ....

لم ينتظر بسام طويلاً واندفع ليحمل المقعد ويهرع نحو الجسد الأسطوانى المتلوى على الأرض .. أطلقت أفعى الجابون فحيحًا غاضبًا فبدت كالشيطان ....

رفع بسام المقعد الدائرى مقلوبًا وهوى بكل قوته على رأس الشىء ، ولم ينتظر ليرى ما حدث .. رفعه وهوى .. رفعه وهوى ...

فقد التحكم فى أعصابه فراح يصرخ فى توحش وهو يهوى ..

خذى .. خذى ... أيتها الـ ....

لابد أنه هوى على أفعى الجابون عشرين مرة حتى تحولت لعجين ..

وفى النهاية وجد أنه بين (علاء) الذى يلبس المنامة وبرنادت التى تلبس قميص نوم ، وكلاهما يحاولان جعله يتوقف ..

كان يبكى .. هذا ديدن من تتوتر أعصابهم بشدة ثم يزول التوتر .. انقطع حبل التحكم فى الدموع كأنه من مطاط فسال الدمع مدرارًا ...

كان يبكى عاجزًا عن الوقوف ، وراح يقول كلامًا سريعًا بالعامية التونسية لم يفهم (علاء) أغلبه ، بينما راحت برنادت تكرر بالفرنسية :

ـ « هلم .. لقد ماتت الأفعى .. اهدأ .. »

فلما بدأ يهدأ تهانفت بدورها ..

قالت وهى تتمخط :

ـ « كيف دخل هذا الشىء هنا ؟.. »

قال (علاء) :

ـ « أعتقد أن الوقت قد حان كى أضعك فى الصورة ، وأحكى لك ما غاب عنك من أحداث .. »

ثم عانق بسام ولثم شعره الأشعث :

ـ « أنا مدين لك بكل شىء .. لولاك لوجدنا سارة ميتة فى فراشها فى الصباح . أنت سريع البديهة شجاع كما عرفتك دائمًا ... أنت أخى .. »

ولم يدر بسام إلا بأن برنادت جاثية على ركبتها جواره ممسكة بأطراف أنامله تلثمها .. لقد أراد الله أن يمضى ليلته هذه بالذات جوار مهد الطفلة .. بالفعل كان السيناريو مكتملاً . هذان الزوجان كانا سيتلقيان ألعن صدمة فى حياتهما صباحًا ..

ساعدها على النهوض وأشعل لفافة تبغ ، ثم نفث الدخان وقال :

ــ « (علاء) .. أنت تعرف ما يجب أن يكون .. »

نظر له (علاء) فى صمت .. ثم قال :

ــ « أعرف ما تريد قوله .. »

قال بسام بوجه صلب قاس يطل وسط سحابة الدخان :

ــ « ميرا ــ جوران يجب أن تموت .. »

* * *

10 ـ الكـــبار ..

كانت الجلسة فى مكتب المدير صاخبة .

هناك منضدة فى الوسط لعبت دور مائدة الاجتماعات ، وضعت عليها جثة أفعى الجابون التى تم سحقها . هناك بودرجا وبسام و(علاء) ثم باركر نائب المدير البريطانى ، وستيج أوليفس النائب الآخر السويدى وجون ماليك مدير الأمن فى الوحدة .. المدير بارتلييه يقف بجسده الشحيم الرجراج وقـد بدا عليــه القلق .. وهناك شيلبى يدخن السيجار ويبدو وسيمًا .. لا تدرى ما دور شيلبى هنا لكنه مهم وكفى .

ثمة جو واضح من التوتر .. الكل مهموم يفكر ، وباركر غاضب من (علاء) كالعادة لسبب مجهول .. الإنسان غير المسئول هو الذى تطارده الأفاعى . لا توجد أفاع تطاردنى أنا لأننى إنسان محترم ..

قال المدير بعد صمت طال :

ــ « نحن هنا لمناقشة هذه الثغرة الأمنية .. أفعى تتسلل من جهاز التكييف وأفعى تتسلل لبيت أحد الأطباء وتوشك على قتل ابنته .. »

قال ماليك فى حرج :

ــ « سيدى .. نحن نحمى الوحدة قدر الإمكان ، لكن لا يقدر أى نظام أمنى فى العالم على منع تسلل الأفاعى إلى مكان مثل سفارى .. »

قال شيلبى مؤمنًا :

ــ « المكان أقرب إلى معسكر محاط بالأشجار .. لا يمكن حمايته من شىء يزحف بين الأعشاب .. »

ضرب (علاء) المنضدة بقبضته وقال :

ــ « سيدى .. الأمر لا يتعلق بثغرة أمنية .. من الواضح أننا تجاوزنا هذه المرحلة منذ زمن .. نحن نتكلم عن عمل خوارقى .. »

باشمنزاز مط باركر شفته السفلى وقال :

ــ « هذيان .. »

لكن (علاء) واصل الكلام :

ــ « لو أمكننا تفسير مغامرة بودرجا وبسام ومغامرتى ، فلا تفسير على الإطلاق لهجوم ثعبانينَ على براكستون وهو فى الولايات .. »

تفحص شيلبى جثة الأفعى بقلم جاف يمسك به .. مرر القلم على الأنياب الحادة ، وقال :

ــ « أفعى الجابون .. أفعى ضخمة فعلاً متوسطة السمية . تعوض قلة خطورة السم بأن تحقن منه كميات هائلة .. »

سأله بارتلييه متهكمًا :

ــ « أنت خبير أفاع إذن ؟.. »

ــ « طبيب المناطق الحـارة يجب أن يعـرف الأفـاعى والعقـارب والعناكب .. »

قالها فى كبرياء وبعض الغضب ...

ثم سحب نفسًا من السيجار وأطلقه ليفسد جو الغرفة ، وقال :

ــ « أعتقد أن القصة واضحة ولا تحتاج لبحث أكثر .. على هذا الشاب أن يجد تلك الساحرة .. قلتم ما اسمها ؟.. »

ــ « ميرا جوران .. »

ــ « اسم جميل بالمناسبة .. لا يمكنك بالطبع أن تشكوها للشرطة قائلاً إنها تلاحقك بالثعابين .. لكن من الوارد أن تحاول التفاوض معها .. »

ساخرًا قال (علاء) :

ــ « أتفاوض ؟ لقد قتلت صنمهم !... أعتقد أننا نتكلم فى عالم المطلق حيث لا تفاوض... الأمر عقائدى بحت .. »

ظل الكل صامتين . لم يذكر أحد حلولاً لأنه لا حلول فى الواقع ...

فقط كان الجميع يفكرون فى هذا الوحش الميت بينهم .. ماذا كان عساه فاعلاً لو كان حيًا ؟ أى ذعر كان سيسببه ؟..

قال (علاء) :

ــ « أعتقد أن علىَّ البحث عنها .. سوف أبدأ بقبيلة أودجيلا التى كانت تعتبرها زعيمة .. »

قال بارتلييه المدير معترضًا :

ــ « ليســت القبيلة هنــا .. هــذا ليس عــام الأفاعى بعد .. إنهم فى الجابون .. »

ــ « هذا ما قصدته .. سأذهب إلى الجابون وأبحث عنها ..!.. »

ــ « وهل تعتقد أن هذا سهل ؟.. »

ــ « وهل انتظار الموت هنا أسهل ؟.. »

ساد الصمت وكل يحاول أن يزن الفكرة فى ذهنه ، ثم قال بسام :

ــ « أعتقد أنه من الصعب أن تترك أسرتك وترحل .. لا بد من وجودك لتحميها .. »

ــ « إذن ؟.. »

نظر للمدير وعيناه تلتمعان وقال :

ــ « لو تفضل السيد المدير بمنحى إجازة قصيرة فلسوف أذهب للجابون بنفسى . لاحظ أننى كنت فى وحدة سافارى –12 فى الجابون منذ أعوام .. »

قال شيلبى فى غيظ :

ــ « كف عن الهراء أيها الشاب .. تنزل فى الجابون ثم تسأل فى الشوارع عن ساحرة أفاع اسمها .. اسمها .... »

ــ « اسمها ميرا جوران .. »

ــ « اسم جميل فعلاً .. هذا لن يكون .. سوف ينتهى بك الحال فى مصحة عقلية .. »

ــ « أعتقد أننى قــادر على العثــور عليها .. غالبًا ستكون القبيلة فى شمال الجابون قرب الحدود مع الكاميرون .. »

ــ « وسوف تقابلها وتقول لها ألا تقتل صديقك من فضلها ..؟ »

صمت بسام لكن (علاء) كان يعرف الإجابة .. الطبيب التونسى الشاب حار العواطف سوف يقتل ميرا جوران لو استطاع... لكن بالطبع لا يمكن أن يقول هذا أمام الآخرين ...

قال المدير بارتلييه بعد تفكير :

ــ « لا أرى حلاً آخر .. سوف أسمح لك بالسفر لكن تصرف على مسئوليتك الخاصة ... لتنه المهمة فى أسبوع .. لا أتحمل غيابك عن وحدتى أكثر من هذا .. »

وافق بسام ووافق الباقون ..

أما عن (علاء) فقد رتب المدير له أن ينتقل مع أسرته إلى غرفة صغيرة فى بناية الوحدة ذاتها . لا يوجد جهاز تكييف والنافذة مغلقة بإحكام يمكن سد الفرجة تحت الباب بسهولة ..

وكما قالت برنادت وهى ترتجف :

ــ « ستكون معجزة لو ظللنا أحياء قادرين على التنفس فى هذا القبر .. »

قام (علاء) بتشغيل مروحة السقف ثم راح يفتش تحت الفراش وفى الخزانة .. لو استطاع ثعبان أن يدخل برغم هذا فلا جدوى .. لا مفر من الساحرة .. من الأسهل أن نموت الآن ..

هنـــاك مشكلة أخـــرى هى الحمام الملحق بالحجرة .. يجب أن تكون حذرًا ... من الممكن أن تجد الثعبان فى المرحاض أو يخرج لك من المغطس ..

كان لـــ (عـــلاء) صديق طبيب يعمل فى وحـــدة ريفية فى الصعيد ، وبعد أسبوع من استعمال الحمـــام فوجئ بثعبان يخرج رأسه له من المرحاض(*) !!! صرخ وجرى وجاء عمال الوحدة ليهشموا رأس الزاحف بالعصى .. لقد كان صاحبنا يجلس على المرحاض طيلة أسبوع وهو لا يعلم ما يدور تحته ..!

إن الحياة عسيرة جدًّا وأنت تتوقع العضة فى أى وقت .. لكنها أصعب وأنت تتوقع أن تؤثر العضة فى واحد من أهلك ... أما لو توقعت أن تكون ابنتك أول من تصيبها العضة ، فأنت فى الجحيم ذاته ..

أنا أرثى لك !!

(*) هذه القصة حقيقية !.. وقعت لصديق للمؤلف عندما كان طبيبًا فى أرياف بنى سويف ..

11 - الخبيـــر ..

لم تكن هذه أول مرة يرى بسام الجابون فيها. لقد انتدب هناك منذ أعوام ، حيث عمل فى وحدة سافارى -12 قرب العاصمة ليبرفيل . يعـــرف البلد جيدًا .. كان الرئيس وقتها هو (عمر بونجو) قبل أن يأتى ابنه على رئيسًا .

هذا بلد أفضل حالاً من بلاد أفريقية عديدة ، واقتصاده لا بأس به .. موارد كثيـــرة وكثافة سـكانية منخفضـــة مما يجعـل مؤشرات التنمية ممتازة .

لكن (بسام) لم يكن ليقيم فى ليبرفيل العاصمة وإلا لكانت رحلته مترفة فعلاً. لقد كان يريد الانتقال إلى إقليم (ووليو نتام) فى الشمال ، وقد قدر أن قبيلة أودجيلا هناك بما أنها تعبر الحدود للكاميرون فى الشمال كل عشرة أعوام .

الناس فى الشمال من قبيلة الفانج غالبًا .. لكن البلاد كلها تعج بقبائل البانتو .. وكان هناك شعب من الأقزام قديمًا ...

هكذا استقر فى مدينة مينفول الواقعة على نهر بتام .. من اسم النهر جاء اسم الإقليم (ووليو نتام).. أقام فى فندق صغير ضعيف الإمكانيات . هذا فندق من الطراز الذى تخشى فيه أن تلمس الجدران حتى لا يتسلل لك البق ..

ما يحيط بالفندق هو أدغال مترامية.. نحن على خط الاستواء بالضبط ، والبلد به أكثر تجمع غوريلات وأفيال فى العالم ..

إن معظم مساحة الجابون غابات استوائية .. بيئة ثرية جدًا ...

على الفور وجد بسام دليلاً يمكن أن يجوب به المنطقة ..

ــ « ما كى ما وولو .. »

هذه هى لغة الأوييم التى يستعملونها فى شمال الجابون . معنى العبارة هو :

ــ « أريد القيام بجولة .. »

الدليل كان شابًا نحيلاً أسمر من قبائل الفانج اسمه رافاييل .. كان مسيحيًا .. معظم الجابون من المسيحيين ، لكن المسلمين يشكلون عشر السكان تقريبًا ، وبرغم هذا كان منهم رئيس جمهورية هو عمر بونجو .. كان بسام قد طلب من صاحب الفندق أن يجد له دليلاً يعرف المنطقة ويتكلم الفرنسية فاقترح رافاييل على الفور .. على كل حال الكل هنا يتكلمون الفرنسية ..

سأله رافاييل :

ــ « يوه نام فاه ؟... واه كوه فاى ؟.. »

معلومات بسام تسمح له بفهم هذا المقطع (كيف حالك ؟ أين تريد الذهاب ؟) ..

رد بكلمة واحدة :

ــ « أودجيلا .. »

أودجيلا اسم القبيلة التى تعبد الأفاعى ، والتى تنتمى لها جوران .. من الآن سيدور الحديث بالفرنسية لأن حصيلة بسام انتهت من لغة الأوييم..

فكر الشاب قليلاً ، وراح يحك شعره الأشعث .. ثم قال :

ــ « سيكون هذا صعبًا ... فرانكات كثيرة ... هذه القبيلة تتوارى ولا تحب أن يزورها أحد .. »

قال بسام فى حماسة :

ــ « سأدفع .. »

كان قد سئم هذه الطريقة .. كل من تتعامل معه فى أى مكان يؤكد لك أن مهمته مستحيلة وصعبة كى تجزل له العطاء. لا يوجد شىء سهل أبدًا . هكذا دس فى كف الفتى بعض الفرانكات وقال فى نفاد صبر :

ــ « اختصر .. أريد الذهاب هناك .. »

قال الدليل وهو يعد المال فى رضا :

ــ « شمال مينفول .. قرب حدود الكاميرون .. قرب نهر بتام .. نحتاج لاستئجار سيارة .. »

قال بسام وهو يجلس فى ردهة الفندق ويمد ساقيه :

ــ « رتب كل شىء .. سوف نذهب هناك .. »

قال الفتى محذرًا :

ــ « دياناتهم غريبة .. ليسوا مسيحيين ولا مسلمين .. يعبدون الــ ... »

ــ « يعبدون الأفاعى .. أعرف هذا .. »

ــ « يحجون إلى الشمال كل عشرة أعوام إلى .... »

قال بسام فى نفاد صبر :

ــ « إلى الكاميرون .. أداماوا ماسيف .. أعرف هذا .. عام الأفاعى .. »

طول الحدود 298 كيلومترًا ومن المستحيل أن تحميها ، لذا كانوا يعبرون بسهولة تامة ، دعك من أن الحدود التى وضعها الرجل الغربى غير معترف بها فى بلد قبلى مثل أفريقيا ..

أشار بسام إلى الساقية السوداء التى تحمل بعض زجاجات الخمر ، فطلب منها أن تحضر له بعض عصيرالليمون ، ثم أشعل لفافة تبغ بينما انطلق رافاييل فى حماسة ليرتب كل شىء ..

ــ « صعب أن تجدهم !.. »

سمع الصوت من الخلف فالتفت ..

رأى رجلاً فرنسيًا ذا شارب كث وعينين رماديتين .. على رأسه قبعة مضحكة ويلبس ثيابًا خاكية كأنه مستكشف فى الأدغال .. كان يرفع كوبًا كبيرًا فيه سائل شفاف وقطعة ثلج ..

قال الفرنسى لما رأى دهشة بسام :

ــ « أنت عربى . شمال أفريقى طبعًا .. تونس أو المغرب ؟ أعرف هذه اللكنة الفرنسية الممتازة .. لا يوجد عربى ينطق الفرنسية بكفاءتكم .. »

ــ « تونسى .. »

قالها بسام فى تردد فأضاف الرجل :

ــ « محسوبك كرستيان بونوا .. إن قومى الفرنسيين فى كل مكان فى الجابون .. الجابون كانت فرنسية وما زالت كذلك لحد كبير.. أنا أعمل مع ناشونال جيوجرافيكس .. نحن لم نترك هذا البلد منذ عام 2008 .. »

ــ « هل تعرف قبيلة أودجيلا هذه ؟.. »

رشف الفرنسى رشفة وقال :

ــ « الكل يعرفها .. قليلون يتعاملون معها .. يتطيرون منها ومن عالم الأفاعى المحيط بها .. يتكلمون لغة غريبة أقرب للغة الجوكون فى نيجيريا . إنهم خارج الزمن ولا ينتمون لمكان .. »

ثم مد يده لحقيبة رثة يضعها جواره .. حقيبة محشوة بأوراق فتناول خارطة تمثل شمال البلاد .. فردها وأشار بيده إلى نقطة معينة .. وقال :

ــ « هم يقيمون هنا .. ليسوا ودودين جدًا لكنهم لن يسلقوك فى الماء لو فكرت فى هذا .. أنت تعرف صورة المسكتشف الموضوع فى قدر يغلى ، وهى صورة مضحكة ابتكرتها المجلات المصورة لكن لا دليل على أنها

حدثت قط ... هناك مجموعة كهوف اسمها (جروت دى كسيبوجو). قمنا بعمل فيلم تسجيلى عنها فى ناشونال جيوجرافيكس .. واعتقادى أن سر القبيلة هناك .. »

تساءل بسام :

ـ « السر بالداخل ؟.. »

ـ « أعتقد هذا .. »

ـ « هل لديك أفلام عن هذه الكهوف ؟.. »

قال الفرنسى وهو يرشف رشفة أخرى :

ـ « لدى بعض الصـــور الثابتة .. سأطبعها لك من جهاز الكمبيوتر الخاص بى .. »

هكذا قضى بسام وقتًا طويلاً مع الخبير الفرنسى .. فى النهاية كان قد حصل على مجموعة صور ونال وصفًا دقيقًا للمكان ..

بالتأكيد كانت صدفة موفقة. لم يتوقع أن بقاءه فى ردهة الفندق الحارة سيقدم له كل هذه المعلومات .. كان عليه أن يبتاع بعض الأشياء من متجر قريب .. كشاف بالحجارة الجافة وحبل وبلطة ..

❋ ❋ ❋

فى الصباح تناول إفطارًا سريعًا ثم خرج إلى الفناء حيث كانت سيارة جيب مكشوفة تنتظره .. فى السيارة جلس الفتى رافاييل يقضم شطيرة ،

أما السائق فهو رجل ملتح مسن اسمه (ياتيك جيلداس) .. الزى الرسمى لكل الناس هنا هو الفانلة الداخلية مع عقد غليظ حول العنق . الكل يدخن .. الكل حافى القدمين ..

وعند السياج وقف الفرنسى يراقب الرحيل ممسكًا بكأس ، فرفعه على سبيل : « نخبك » وهز رأسه مشجعًا ..

استرخى بسام فى المقعد وسأل رافاييل :

ـ « كم تبلغ المسافة ؟.. »

ضحك رافاييل ولم يقل شيئًا ..

❋ ❋ ❋

12 ـ النمس ..

يمكنك بسهولة فى سافارى أن تنسى نفسك ..

تنسى أن ساحرة وثنية مجنونة تلاحقك ..

تنسى أن هناك جيش ثعابين يريد الظفر بأسرتك وبك ..

تنسى أنه لا يمكن حمايتك ..

إن العمل كثير جدًا وإيقاع الحياة لا يرحم ، لكن (علاء) كان حريصًا على حماية أسرته الصغيرة .. لا تبقى سارة وحدها فى الغرفة أبدًا .. برنادت لا تمشى بعيدًا عن الممشى الأسفلتى .. لا بد من تفتيش الأحذية جيدًا قبل أن تدس قدمك فيها .. لا بد من إلقاء نظرة للخزانة قبل أن تمد يدك فيها .. لا بد من سكب ماء ساخن فى المرحاض قبل استعماله ..

حياة مرهقة خصوصًا أن هناك ثغرات لا بد منها ..

برنادت وجدت ثعبانًا صغيرًا فى جيب معطفها المعلق فى عيادة الأطفال. هذه ثغرة منسية .. صرخت حتى أيقظت الموتى وألقت بالمعطف على الأرض ، واحتشد العمال ورجال الأمن يدوسون الثعبان البائس ليحولوه إلى عجين ..

(علاء) كان يعرف أنه لا بد من حل .. الحياة لا يمكن أن تستمر بهذه الوتيرة .. سوف تحدث ثغرة ما أو خطأ ما ، ولن يحالفهم الحظ أكثر من هذا ..

ترى ماذا يفعله بسام فى الجابون الآن ؟ لم يتصل بالهاتف ولا يرد على من يتصل به ..

هل وجد تلك الشيطانة ؟

ولو وجدها فماذا عساه فاعل ؟

لكن العمل كثير فى سافارى ، والعمل خير مخدر ..

❋ ❋ ❋

كان (علاء) يعمل فى المختبر ، عندما ظهر رجال الأمن مع بعض رجال الشرطة الكاميرونيين من قوة Gendarmerie Nationale وهم رجال أشداء يبعثون الهيبة .. جهاز الشرطة فى الكاميرون قوى ويتمتع أفراده بالكفاءة .. كانوا يتكلمــون فى عصــبية ويتصرفون بانفعال وبدا أنهم يفتشون الوحدة ..

ضابط كاميرونى يتبادل الكلام مع فنى المختبر وهذا الأخير يهز رأسه .

ثم الضابط يتجه لــ (علاء) ليسأله :

ـ « دكتور .. هل رأيت الكهربائى (روجيه ميكا) ؟.. »

استرجع (علاء) الاسم للحظات .. لا بد أنه رأى هذا الكهربائى مرة أو مرتين من قبل ، لكنه لا يعرف عنه الكثير سوى أنه كان ضخم الجثة كالغوريلا ..

تساءل :

ـ « هل هو مختف يا سيدى ؟.. »

قال الضابط فى عصبية :

ـ « أنا من يسأل هنا .. على كل حال الإجابة هى نعم ... لقد وجدنا حافظته فى مرآب الوحدة .. هذا جعلنا ندرك أنه لم يفر مع حبيبته بعد ما سرق الخزانة .. »

وفر (علاء) الوقت على الرجل فأعفاه من الأسئلة السخيفة على غرار : هل بحثتم لدى أصدقائه ؟ هل استجوبتم أفراد أسرته ؟ بالطبع فعلوا ذلك . ما كانوا ليفتشوا الوحدة ويسألوا الناس إلا بعد ما قلبوا الأحجار كلها ...

كان رجال الشرطة فى قسم الجراحة .. فى معزل الأمراض المعدية .. فى كل مكان ..

وفى النهاية بدا عليهم اليأس وانصرفوا ..

قال فنى المختبر لــ (علاء) :

ـ « ميكا كان يحب الخمر ... أعتقد أنه هرب لمكان ما ليعاقر الخمر ثم يعود لزوجته بعد أيام زاعمًا أنه فقد الذاكرة وتاه فى الدغل .. »

كان هذا محتملاً .. لكن لا يمكنك أن تقلق على رجل بالغ اختفى لمدة يومين . هذا أمر وارد ..

هكذا نسى (علاء) القصة بعد ساعات وانشغل فى مشاكله الخاصة .. لماذا لا توجد أخبار عن بسام ؟

عاد لغرفته التى صار يعتبرها سجنًا دائمًا إلى أن تحل هذه المشكلة ، وهو لا يدرى متى تحل .. كانت برنادت جالسة تطعم سارة التى وقفت فوق الفراش تقرقر وفمها ملطخ بالسريلاك .. فلما رأت أباها صفقت يديها وتواثبت ..

جلس (علاء) على مقعد هناك وراح يتأمل أسرته الصغيرة .. هل من الحكمة أن يستقيل ؟ يأخذ أسرته ويعود لمصر ويبحث عن حياة هناك ؟

لكن لا . السبب الأول هو أنه لا يضمن ألا تطاله اللعنة هناك .. ولديه فى براكستون خير عبرة ... إذا كانت الثعابين قادرة على أن تصل لك فى الولايات فمن السهل أن تصل لك وأنت فى القاهرة ..

السبب الثـانى هو أن الحيـاة فى مصر عسيرة جـدًا حاليًا .. من الصعب أن يضمن دخلاً معقولاً لأسرته .. ربما بعد خمس سنوات لو نجحت عيادته ..

لقد صارت له جذور متوغلة فى الكاميرون وصار انتزاعها عسير جدًا ، يشبه ما حدث عندما ترك مصر أول مرة ..

لو كانت ميرا جـوران تريد الانتقام ، فقـد نجحت فعلاً .. جو التوتر والتوجس هذا أقوى من الموت ذاته .. أخطر من أى ثعبان ..

دق جرس الباب فراح ليفتحه ..

هنا فوجئ بالبروفسور الأمريكى المتبختر آرثر شلبى .. هذا غريب !... الرجل لا يزور (علاء) إلا نادرًا جدًا ... كان يحمل فى يده شيئًا يشبه القفص المغطى بمنشفة سميكة ..

قال لـ (علاء) فى مرح :

ـ « كيف الحال يا (علاء) ؟ كيف زوجتك وطفلتك ؟.. »

قال (علاء) كلامًا مبهمًا .. ثم سمح للرجل بأن يدخل .. الغرفة ضيقة ولا تناسب استضافة ضيوف غير مرغوب فيهم ، كما أنه وبرنادت عادا للأكل فى المقصف .. بعد ما كانا قد اعتادا الطهو فى بيتهما المنفصل ... أى أنه لا يوجد قرى (بكسر القاف) للضيف ..

دخل شيلبى ولوح بيده لبرنادت ، ثم وضع ما يحمله على المنضدة ، وبحركة درامية أزاح الستار عن الشىء ..

رأى (علاء) ما يشبه القط الكبير داخل القفص .. ربما يشبه فأرًا أملس عملاقًا له عينان حمراوان كالدم ... وكان له طوق معدنى حول عنقه لا تعرف كيف تم تثبيته ..

هتفت برنادت :

ـ « هذا إرمين Ermine .. »

قال شيلبى فى لهجة انتصار :

ـ « أنت فتاة ذكية .. لكن الإرمين لا وجود له هنا . هذا نمس أو مونجوس Mongoose .. شرس جدًا وأكول لو أردت رأيى !.. »

فى غيظ قال (علاء) :

ـ « هل ترى أن هذه أفضل هدية لنا فى ظروف كهذه ؟.. الحقيقة أننا كنا بحاجة لنمس منذ تزوجنا .. لا أعرف كيف يعيش بعض الناس من دون نمس .. »

قالت برنادت مبتسمة :

ـ « بل هى هدية مناسبة فعلاً .. النمس هدية ممتازة لمن هم مهددون بالثعابين .. »

ملس شيلبى فى فخر على شعره الأشيب الجميل ولسان حاله يقول :

ـ « من حسن الحظ أن يتزوج الأغبياء من فتيات ذكيات .. »

قال لـ (علاء) فى نفاد صبر :

ـ « هذا النمس سوف يصاب بهياج لو تواجد ثعبان فى الغرفة .. علامة إنذار ممتازة ، وفى الآن نفسه هو ممتاز فى ملاحقة الأفاعى .. أى أنه من الممكن أن تطلق سراحه وتدعه يفتش .. »

ــ « يا سلام .. وكيف أعيده للقفص ؟.. »

ــ « لا أدرى .. »

ثم أضاف شيلبى :

ــ « النمس ممتاز مع الكوبرا ومع أى أفعى تعتمد على لحظة ترقب .. إنه ينومها عصبيًا بحيث يتفوق عليها ، لكنه يفقد قدراته مع أفعى الجرس ومع الثعابين العاصرة .. »

راح (علاء) يتأمل الحيوان المتوحش فى القفص وبدا له مرعبًا أكثر من الثعابين .. فسأل شيلبى :

ــ « وماذا أطعمه ؟.. »

ــ « أى شىء .. كتاكيت أو فئران ميتة .. هذا كل شىء.. »

ثم ابتسم وحياهما وانصرف شاعرًا بأهميته .. بالطبع قبل أن يسأله (علاء) عن طريقة الحصول على كتاكيت فى سافارى ..

هذا الرجل يتصرف كأن هذه بديهيات لا يجب أن نضيع الوقت فيها ..

تأمل (علاء) الهدية الرهيبة .. وراح يدق بأنامله على القفص ، ثم سأل برنادت :

ــ « هل ترين أن نخرجه للحديقة ونفتح القفص ؟ سوف يحب التهام الدجاج لدى فلاحى القرى المجاورة .. »

قالت فى ضيق :

ــ « لا تفعل .. قد يكون مفيدًا فعلاً .. سوف أقدم له بعض قطع اللحم .. يمكن للمرء أن يحب مصاص دماء أو غوريلا مليئة بالقمل بحكم التعود .. غدًا سوف تكتشف أنك تحب هذا الوحش .. »

ظل (علاء) يراقب الحيوان الذى يتحرك فى عصبية وراء قضبان القفص ثم بدأ يشعر بالنعاس .. هذه نهاية يوم آخر ..

❋ ❋ ❋

13 ـ الزعيــم ..

هكذا ترجـل بســام من الســيارة شــاعرًا أنه ابتلع كـل أتربة العالم . لم تكن ساقاه تتحمــلان وزنه بل همــا لينتان من فرط الركوب . عنــدما لم يذكر رافاييل المســافة كان على حق .. هــذه رحلة تحطم عزيمة أى إنسان ..

كان يرى أمامه الآن نهيرًا صغيرًا يمتد للأفق وهناك قرية أكواخ صغيرة يرى القوم يتحركون فيها وأطفالاً يلعبون ونساء يحملن الجرار .. هناك دخان يتصاعد من قدور تغلى على النار ، وهناك كلب أو كلبان ينبحان .. وقطيع دجاج يجرى هنا وهناك . بل إنه رأى بعض الماعز وسره هذا .. لديهم مصادر حيوانية للحم إذن !

أخرج الهاتف الجوال ونظر لشاشته .. لا توجد شبكة هنا .. هذا متوقع على كل حال . شبكة الجوال تعبث بنا .. تعرف متى نكون قلقين خائفين لتختفى .. شبكة لعوب خبيثة .. لابد أن (علاء) يجن قلقًا .

جاء مجموعة من القرويين الفضوليين ، ومنهم أطفال كثيرون ليروا القادمين ..

قال رافاييل بلهجة انتصار :

ــ « أودجيلا !.. »

كانت قبيلة عادية جدًا .. كأى قبيلة أخرى ، وقد اقتادوا ضيوفهم إلى كوخ هو الأكثر اتساعًا .. كانت أقنعة أفريقية مميزة معلقة فى كل مكان ، وكان بسام يعرف أن هذه أقنعة نجولتانج .. إنها تميز قبائل الفانج فى الجابون ولعلها من أهم مبيعاتها السياحية ..

ظهر رجل بدين له بطن عملاق ولحية كثيفة . لا يوجد شىء غريب فيه سوى أنه يحمل عصا خشبية عليها ثعبان محنط ملتف ...

هذا هو الزعيم أو الحكيم على الأرجح ...

قال له رافاييل بعد حوار قصير مع القوم :

ــ « هذا هو زعيم القرية .. (بتومباتى) .. أنه يسألك عن مشكلتك .. »

هنا تساءل بسام فى حيرة :

ــ « قرية ؟ أليست هذه قبيلة رحالة ؟.. »

ــ « نعم .. لكنهم يقيمون هنا معظم الوقت .. »

قال الرجل ذو البطن شيئًا وحك لحيته .. لاحظ بسام أن أسنانه كلها ناقصة .. ترجم رافاييل الأمر :

ــ « يقول إن رجال التصوير ــ يقصد رجال ناشونال جيوجرافيكس ــ يأتون هنا كثيرًا ويدفعون مالاً .. وهو يعتقد أنك منهم برغم أنه لا يرى معك كاميرات .. »

قال بسام وقد التقط الخيط بسرعة :

ـ « هذا صحيح تمامًا .. أنا أرتب كل شىء للمجموعة التى ستأتى لالتقاط الصور قريبًا .. قل له إننى مهتم بطقوس عبادة الأفاعى وأريد مقابلة ساحرتهم .. »

نظر له رافائيل فى تردد ثم راح يكلم الزعيم ، بينما هذا ينظر لبسام ويهز رأسه .. وفجأة راح يضحك وبطنه يهتز ..

نظر بسام للشاب متسائلاً فقال له :

ـ « يقول إن هذه العقيدة انتهت منذ زمن .. إنهم لم يعودوا يؤمنون بهذا الآن .. يعبدون أنكلا نكولو مثل الجميع .. »

ـ « الجميع يعبدون أنكلانكولو ؟ هذا غريب نوعًا .. »

قالها بسام فى غيظ ونظر لوجه الرجل .. هذا الرجل يتذاكى طبعًا .. يبيع ولا يشترى .. يلعب لعبة لئيمة بحق . لا يعبدون الأفاعى وليست لديهم ساحرة . جميل .. ويشاهدون أفلام ديزنى فى المساء .. أليس كذلك ؟

تساءل بسام :

ـ « ومصور ناشونال جيوجرافيكس الذى قال إن القبيلة تعبد الأفاعى ؟ وعام الأفاعى ؟ وميرا جوران ؟.. »

قال رافاييل :

ـ « يقول إن هذا كان موجودًا فى الماضى ، لكن الحياة تتغير .. إنه التقدم .. »

كاد بسام يجن غيظًا ... نظر حوله ثم قال لرافائيل :

ـ « إذن قل له إننى أريد تصوير الكهوف هنا .. كهوف (جروت دى كسيبوجو) . أن ناشونال جيوجرافيكس قدمت فيلمًا عنها .. لا بد أنه يملك خلفية .. »

ثم أشار إلى الأفق حيث توجد مجموعة صخور ، من الواضح أن تلك الكهوف فيها ..

راح بسام يراقب وجه الرجل وهو يسمع هذا الكلام .. اختلج قليلاً ونظر بعين من نار لبسام ، ثم هز رأسه فى فتور وراح يقول شيئًا ما ..

ـ « يقول إنها خطرة جدًا ... »

فكر بسام قليلاً .. من الواضح إذن أن المقابلة انتهت . لكن ليس بهذه السهولة ..

ـ « قل له ما يعنى أن السلطات فى ليبرفيل ومينفول تعرف مكاننا وتطلب منه التعاون .. »

قال رافاييل فى غباء كأن الصدق قد غلب على كل شىء عنده :

ـ « لكن هذا لم .... »

ــ « نعــم .. سنكذب لضــمان سلامتنا .. هــذه ليست جريمة . اطلب منه أن يسمح لنا بالمبيت ... إن الرحلة مرهقة ولسوف نتحرك عند الصباح .. »

نظر له رافاييل فى دهشة ... ما جدوى المبيت إذن ؟.. لكن (بسام) كان واضحًا ومصرًا .. هكذا هز الرجل رأسه موافقًا وبدت عليه الحيرة ، ثم أصدر أمره للنسوة أن يعددن فراشًا فى العراء للثلاثة .. السائق والدليل والطبيب ...

كان الليل قد جاء فراحت الكلاب تنبح هنا وهناك ..

جاء أحد القوم ببعض الحطب وأشعل نارًا جوارالفراش ووضع وعاء فيه بعض الطعام جوار الضيوف ، ثم قال شيئًا .. طلب رافاييل سيجارة من بسام ثم أشعلها وناولها للرجل. يتصرف كأى ريفى فرح بسيجارة (مكنة) عندنا ...

جلس ثلاثة الرجال يراقبون القرية ويدخنون .. هذه نهاية يوم .. شعلات النار تتناقص من حين لآخر ، وعما قريب يعم الظلام وينام الجميع وتغفو الكلاب العاوية ..

وتصحو الأفاعى ....

قال رافاييل وهو يدخن لفافة تبغ أخذها من بسام :

ــ « تخيل أننا ننام فى قرية من عبدة الأفاعى ... ليست أفضل طريقة للنوم دكتور .. لا أعرف لماذا أصررت على المبيت .. »

قال بسام وهو يبتلع بعض الطعام الكريه :

ــ « لن ننام فى قرية الأفاعى .. من قال هذا ؟.. سنحاول التسلل إلى ذلك الكهف هذه الليلة !.. »

❋ ❋ ❋

14 ـ المـــرأة ..

كان اسمه (جون جالووزى) ..

فنى غازات كاميرونى نحيل يبــدو سقيمًا لمن يراه ، لكنـــه كان شديد النشاط والمرح ، ومعظم عمال الوحدة يحبونه ..

لقد اختفى جالووزى فى اليوم التـــالى . لا أحـــد يعـــرف أين ذهب ، ولا لماذا اختفى . زوجته وأطفاله الثلاثة يبحثون عنه .. وقد جاء رجال الشرطة كالعادة يبحثون فى الوحدة ..

هكذا يمكن القول إن اثنين من سافارى اختفيا فى ثلاثة أيام . لا تنس الكهربائى (روجيه ميكا) . هل هناك عصابة تختطف الفنيين والعمال ؟ لكن ما جدوى هذا ؟ إنهم فقراء بؤساء وبالتأكيد لن يدفع أحد فدية لهم. من يخطف هذين يكلف نفسه مال إطعامهما ..

هل فر الرجلان ؟ إلى أين ؟ لا مكان لهما ولا مصدر رزق سوى وحدة سافارى ، كما أن شيئًا لم يسرق أو يختفى .. لا يمكن أن تعتقد أن الكهربائى سرق جهازًا غالى الثمن مثلاً ..

كان جو من القلق يخيم على الوحدة فعلاً ..

وصدرت تعليمات للعاملين والممرضات بعدم التواجد وحدهم .. كما أن رجال الأمن انتشروا فى الوحدة يراقبون كل شىء ..

لكن لا جدوى .. كأن الأرض انشقت ليختفى العاملان ..

أو ابتلعهما ثعبان ..

* * *

(علاء) عائد من نوبتجية فى عنبر الحروق ليلاً..

عليه أن يعبـــر ممرًا عريضًا بيـــن البنايات كى يبلغ المسكن فى ضلع حرف L القصير .. سيارات سافارى بالشعار المميز عليها نائمة فى الظلام تتصاعد منها رائحة المعدن البارد والوقود . هناك مساحة بين الأشجار تضيئها الكشافات وقد جعل الليل الأفريقى دائرة من نور حول كل مصباح .. تذكرك بما يراه مرضى الجلوكوما (المياه الزرقاء) حول المصابيح ...

صوت الحشرات الليلية وضفدع ينق فى مكان ما ...

ثم توقف ..

يمكنه أن يرى فى نهاية الممر سلويت امرأة .. امرأة تتقدم نحوه بخطوات ناعمة كأنها تمشى . تذكر اليـــورى فى الأساطير اليابانية التى تسرى ولا تمشى ولا ترى قدميها أبدًا ...

كانت تمشى فى تؤدة هناك .. ولسبب ما لم يحب كثيرًا أن يقابلها ..

استدار فى الممر وراح يجد السير ..

بعد خطوات التفت للخلف لكنه وجدها تتحرك نحوه بذات الثبات ..

بدأ يتوتر فعلاً .. الأمر غير مريح على الإطلاق . امرأة وحيدة فى الظلام يجب أن تكون قلقة خائفة ، فلو لم تكن قلقة خائفة فلا بد أن السبب هو أنها مخيفة هى نفسها !!

لا يجب أن يجرى .. الجرى سيجعله يفقد عقله ..

وفجأة رأى أجمل مشهد فى العالم ..

رأى رجلين من رجال الأمن يمشيان ـ حسب تعليمات المدير الأخيرة ـ فى دورية ، فارعى الطول عملاقين يوحيان بالثقة .. والأجمل أن معهما كلبًا ....

جرى (علاء) نحو الرجلين ، وعرفه أحدهما فسأله عما هنالك ، لكن الكلب كان ثائرًا بعنف .. ينبح ويشب على قائمتيه الخلفيتين والشعر منتصب على عنقه ... كان الرجل يبذل جهدًا شديدًا للسيطرة على الطوق ...

لكن (علاء) لاحظ أن الكلب لا ينبح باتجاهه .. ينبح باتجاه من يطارده ...

نظر (علاء) للخلف فلم ير شيئًا .. لا يوجد أحد ..

صاح بالفرنسية مخاطبًا أحد رجلى الأمن :

ـ « امرأة !.. امرأة لا تعرفها تمشى فى الظلال تحت الأشجار .. »

تبادل الرجلان النظر .. الرجل المذعور من امرأة وحيدة!.... لا تعليق .. لكن الكلب كان فى حالة هياج مرعبة .. كان يطوح بصاحبه يمينًا ويسارًا ..

فجأة تملص الكلب من آسره واندفع يجرى خببًا فى الممر .. يجرى حتى نهايته وهو يعوى بوحشية ، ثم توقف وراح يتشمم الهواء ... كان هذا سور الوحدة وليس بعده شىء .

جرى الحارس نحوه ليهدئه :

ـ « هلم يا رامبو .. اهدأ !.. »

رامبو ؟ اسم غريب لكلب لكن لا بأس به لو فكرت فى الأمر .. قال أحد الحارسين لـ (علاء) :

ـ « واضح أنك كنت تتوهم دكتور .. أعصابك متوترة فعلاً .. »

فى غيظ قال (علاء) :

ـ « والكلب أيضًا ؟ أن عدد الجبناء يتزايد .. »

قال الحارس لصاحبه بضع كلمات بلغة البانتو لم يفهمها (علاء) ، ثم قال بالفرنسية :

ـ « سوف نصحبك إلى المسكن .. لن تكون هناك مفاجآت .. »

هكذا مشى (علاء) معهما ومع الكلب شاعرًا بأنه فتاة جبانة تعرضت لتحرش ، لكنه كان يعرف يقينًا أنه مر بتجربة غير مألوفة . الأمر لا يتعلق بامرأة تمشى فى الظلام وإلا لبدا شاعريًا ..

الأمر يتعلق بامرأة لا تخاف الظلام وتمشى نحوه ببطء وتثير جنون الكلاب ..

فمن هى ؟

* * *

جلس (علاء) يتناول العشاء مع برنادت يحكى لها قصته .. أين بسام ؟ هل يلاقى أى نجاح فى الجابون ؟ هل قتله عبدة الأفاعى وسلقوه ؟

قالت له برنادت :

ــ « حتى لو لم يحقق نتائج فأنا لا أرى غالبًا هذا القدر من الشجاعة والتضحية .. هذا مثال تجده فى القصص الرومانسية فقط .. »

قال لها وهو يدس ملعقة أرز فى فم سارة :

ــ « لأن بسام رومانسى فعلاً .. حصان عربى نبيل جامح كان يركض على الشط فى شمال أفريقيا وسط الأمواج ثم جاء هنا .. يحلم .. يعشق . يضحى .. يحلق .. »

كانت سارة تقرقر وهى تلتهم الأرز .. ملاك صغير مرح يصفق..

كانت تنظر إلى ركن الغرفة .. ثمة حركة زائدة فى المكان ...

هناك فوق منضدة كان القفص الذى يكمن فيه النمس هدية شيلبى الرهيبة . النمس الذى أطلقوا عليه اسم برسيوس . تيمنًا ببرسيوس الذى قتل ميدوسا ..

كان الحيوان متوترًا .. يدور فى القفص بجنون ولا يهمد أبدًا ... كأنه فأر حبيس ..

راح يحاول قرض القضبان بأسنانه وعيناه الحمراوان تشتعلان نارًا ..

تبادل (علاء) نظرة متفهمة مع برنادت ....

وضع الملعقة ونهض ...

قال لها بصوت يرتجف :

ــ « هناك ثعبان فى الغرفة ... لا شك فى هذا ! غريزة الحيوان لا تخطئ .. »

* * *

15 ـ الساحرة ..

بسام مندفع كما قلنا ، ولا يعرف الانتظار والتعقل المملين ..

بسام حصان أفريقى مندفع جامح لا يمكن ترويضه ..

لقد اجتاح الفتى رافاييل كأنه إعصار فلم يترك له فرصة للاعتراض .. سنزحف إلى حيث ذلك الكهف .. نتوغل لمسافة عشرين مترًا ونفحص كل شىء بالكشاف. الفرنسى قال : إن سر أسرارهم هناك ، وأنا أراهن على أننا سنجد شيئًا مهمًا .. سوف نجد الأفاعى التى تثبت أنهم ما زالوا يعبدون الثعابين ، وعلى الأرجح سنجد ساحرتهم ميرا جوران ..

لم تكن عنده خطة لما بعد لقائها ..

بالتأكيد ما كان ليقتلها ، على الأقل على أرض قبيلتها . هذا انتحار .. لكنه كان يأمل فى التفاوض .. فى طلب الصفح .. شىء من هذا القبيل ..

قال رافاييل فى توجس :

ـ « سوف يقتلوننا ويرمون بنا طعامًا للأصلة .. لا شك فى هذا .. »

قال بسام ضاحكًا :

ـ « دع عنك هذا السخف .. هم لن يمسوا شعرة من رءوسنا لأنهم يعرفون أن سلطات الجابون تعرف أننا هنا .. »

ليته يكون واثقًا بالقدر الذى توحى به كلماته .. ليته !! أنه يجيد التمثيل بحق .

ثم إنه راح يجمع اللازم .. الكشاف .. الحبل .. الكاميرا .. المدية .. ثم نهض .. بالطبع لم يكن يستطيع إرغام السائق (يانيك جيلداس) المسن على الذهاب معهما ..

فقط قال له :

ـ « أين السيارة ؟.. »

ـ « خلف هذه الأشجار .. »

ـ « أقترح أن تحرسها وتتأهب .. فلربما اضطررنا إلى الرحيل بسرعة .. »

لم يفهم السائق الأمر فلف سيجارة أخرى أشعلها وبصق .. وهذا جعل (بسام) يطمئن ..

وهكذا ابتعد الرجلان تاركين الفراش فى العراء والسائق المسن يجلس فى لهب النار ، والسيجارة بين شفتيه والحيرة فى عينيه ..

الكهف يجثم كشبح فى الظلام ..

يقتربان فيكبر بلا توقف ...

الكهف آت ... الكهف يترقب ... الكهف حى بلا شك ...

لا توجد حتى هذه اللحظة أى علامات على أن هناك من يحرسونه .. لا يوجد بشر ولا توجد أفاع على الأرض ..

الصـــعود إلى فتحـــة الكهف ليس صعبًا .. فى الظلام تتعثر لكنك تطلق بصيصًا خافتًا مـــن الكشـــاف يسمح لك برؤية الصخور . كانا يلهثان من التعب ..

ثم رأى بسام المدخل ..

هنـــاك شىء بالداخل فعـــلاً لأنه يرى ضـــوءًا خافتًا .. هنـــاك مشاعل بلا شك ...

تسلل من الفتحة وأشار لرافاييل كى يتبعه .. مشى وسط ممر منحدر صخرى فأضاء الكشاف ليسقط ضوء خافت يمنع التعثر ..

بالتأكيد هناك قاعة واسعة ، وفى هذه القاعة يوجد شىء ..

نظر لرافاييل يتأكد من أنه لم يجبن .. لم يتراجع الفتى لكن عينيه المذعورتين كانتا على وشك الوثب للخارج. كان يحمل مدية بدا واضحًا أنه سيولجها فى بطن أى واحد يراه حتى بسام نفسه .. فقط لو تسبب فى إفزاعه ..

ببطء دنا بسام من فتحة القاعة ..

كان ما رآه مخيفًا ..

❋ ❋ ❋

المشاعل فى كل مكان .. تحيط برقعة فيها جدول رقراق صغير .

على الأرض تتناثر أفاع .. أفاع متعددة الأشكال والألوان .. بعضها يزحف وبعضها منتصب فى ذلك الوضع المنذر ، وبعضها يتلوى حول نتوء صخرى ..

وسط هذا كله يجثو الزعيم على ركبتيه كأنه ساجد ويردد كلامًا مبهمًا ..

الأفاعى لا تؤذيه ولا تبالى به .. كأنه تمثال ...

فى يده عصا .. وحول العصا تلتف أفعى دقيقة كالأفعى التى تلتف حول كأس الصيدلى ..

أما ما يثير الذعر فعلاً بعد كل هذا ، فهو ذلك الضريح المنتصب الذى يتخذ شكل الكوبرا .. كوبرا عملاقة مجوفة تتوهج فى ضوء النيران ..

الكوبرا تشبه ورقة شجر عملاقة تستقر فى مركزها مومياء متحللة ملفوف أغلبها بالضمادات .. مومياء تكشر عن أسنانها المتساقطة وعينيها المجوفتين . لكنها مثبتة فى وضع يبقيها واقفة كأنها تراقب المشهد .. اللهب المتراقص يشعرك بأنها حية ..

هنا دوت شهقة ..

نظر بسام المذعور ليجد الزعيم ذا الكرش العملاق يتقدم نحوه وقد اتسعت عيناه وصار وجهه لوحة اسمها الغضب المجنون .. يلوح بعصاه التى التفت حولها أفعى ويدمدم بلا توقف ..

صاح رافاييل بصوت راجف :

ـ « يقول إننا نجسان وقد دنسنا محراب الساحرة العظمى أم الساحرات.. يقول إننا سنموت .. سينادى الرجال ويلقون بنا للأفاعى .. »

قال بسام وهو لا يبعد عينه عن الرجل المجنون :

ـ « أين ميرا جوران ؟.. »

قـال الرجـل شيئًا وقـد سمع الاسم .. فقال رافاييل وهو موشك على البكاء :

ـ « يقول إن الساحرة العظيمة تنتقم من المدنسين فى الشمال .. فى الكاميرون !.. »

هنا انقض الزعيم على بسام فمد هذا ساقه تلقائيًا أمامه. تعثر الرجل البدين وسقط أرضًا .. ليس السقوط هنا محببًا ولا يدل على الحكمة ...

صرخ الرجل ، ورأى بسام أفعى طولها نحو مترين تنشب أنيابها فى ساقه. الأفاعى تميز أصدقاءها ، لكنها كأى واحد آخر لا تتحمل قدمًا بدينة تهبط فوقها. أفعى غريبة تعض بطريقة من لا ينوى التخلى عن فريسته أبدًا .. كأنها تلوك اللحم. ولم يكن بسام يعرف أن هذه أفعى بومسلانج التى تعيش فى غرب أفريقيا .. أنيابها فى مؤخرة الفك وليست فى مقدمته ، لذا تضطر إلى أن تطيل أمد العضة لتفرغ السم ، كما أن عضتها مؤذية فعلاً لأنها تنزع أنيابها بصعوبة .. الترياق المضاد لها معروف فى أفريقيا واسمه SAMIR ....

صرخ الرجل وارتجف ... فتخلت عنه الأفعى وراح يتحسس الجرح ....

بسام لا يعرف أن سم هذه الأفعى بطىء .. سيظل الرجل حيًّا على الأرجح خاصة أن هؤلاء القوم لديهم أقراص الجهار مورا المصنوعة من سم العلجوم ..

الآن يجب الهرب .. لا يجب التفكير فى شىء آخر ...

هكذا جر رافاييل من يده وانطلقا يجريان خارجين من الكهف ..

فى الخلفية جلس الزعيم على الأرض وسط الأفاعى والظلام ووهج المشاعل يتحسس قدمه ويطلق اللعنات.

خرج الرجلان من الكهف ، فاندفعا يركضان فى الظلام إلى حيث كانت الحشية والسائق الجالس يدخن جوار النار.. هتف بسام وهو يجمع حقائبه بسرعة :

ـ « هلم !.. السيارة حالاً !!.. نحن عائدون ؟.. »

اهتزت لحية السائق فى دهشة :

ـ « هل فرغتما من استكشاف الكهوف ؟.. »

ـ « نعم .. نعم . أسرع بالله عليك .. »

ـ « ألن ننام ؟ كان اليوم طـــ............ »

ـ « أسرع بالله عليك وإلا نمنا للأبد !.. »

هناك كانت السيارة باردة نائمة تنتظر ، فوثبوا فيها وجرب السائق أن يدير المحرك عدة مرات .. بسرعة !!.. لن يطول الوقت قبل أن يجدوا الزعيم الجريح ويأتوا للظفر بنا ... بسرعة !..

أخيرًا دار المحرك وانطلقت السيارة مبتعدة عن الكابوس ...بسرعة البرق تقطع الطرق المظلمة وكشافاها يتوهجان وينعكسان على سحابة الغبار التى أثارتها ... بعد ميلين بدأ بسام يهدأ قليلاً ، فطلب من السائق أن يوقف السيارة .. فعلها الرجل وهو لا يفهم ما يحدث ... ترجل بسام وطلب منهم أن يفعلوا نفس الشىء.. ثم قال :

ـ « حان الوقت كى نفتش السيارة .. لو لم أكن مخطئًا فلا بد أنهم وضعوا فيها ثعبانًا أو ثعبانين ... ومن حسن حظنا أننا لم نُهاجم حتى هذه اللحظة !.. »

***

16 ـ الصـــديق ..

(عــلاء) وبرنادت راحـــا يبحثان تحت كل مقعد ووراء كل شىء .. لا أثر ...

ـ « لن أستطيع النوم ما لم أفهم ... »

هنا خطرت فكرة لـــ (علاء) .. بحث عن حبل .. ثم أولج إصبعه عبر القضبان ، وبحذر مرر الحبل فى الطوق المحيط بعنق النمس وصنع عقدة.. كان قد رأى هذا المشهد فى قفص الأسود فى السيرك عندما يريد المدرب أن تبقى الأسود مكانها بينما هو فى الأرجوحة مع النمر. يمرر أحد المساعدين الحبل فى طوق الأسد وهو ملتفت لجهة أخرى ، ثم يربط الحبل فى قضبان القفص .. عندما يهبط المدرب يفك المساعد الأسد بسرعة ورشاقة ..

فعل (علاء) هذا ثم بحذر فتح الباب ..

وثب النمس خارجًا ومن خلفه الحبل ، فلما تحرر الأخير أمسك (علاء) بطرفه . هكذا يمكنه السيطرة على هذا الشىء الشرس سريع الحركة ..

اندفع النمس كالمجنون .. وفى اللحظة التالية فوجئت برنادت بأفعى تطل من حذائها الذى نزعته ووضعته جوار الفراش !!

لقد كانت هناك طيلة الوقت !.. متى دخلت وكيف ؟؟

هذا الانتقام المخيف ذكر (علاء) بقصة هـ. ج. ويلز عن الرجل الذى طارده سحرة وثنيون .. سلطوا عليه الأفاعى طيلة اليوم يقابلها فى ثيابه وفى الطعام وفى مرقده .. حتى انتهى به الأمر إلى الجنون .. بالفعل نحن نكرر هذه القصة ..

وخطرت فكرة أخرى لـ (علاء) ..

لن نموت بسهولة .. الهدف الأول من هذا كله هو أن نجن ذعرًا ... سيطول عذابنا قبل النهاية ..

وثبت الأفعى من الحذاء ورسمت شكل 8 الشهير الذى يدل على أنها غاضبة .. منشارية الحراشف .. هذه من الأفاعى القليلة التى حفظوها لأنهم تعرضوا لها مرارًا ، وقد لدغت (علاء) فى أداماوا عندما كمنت فى حذائه .. طولها 25 سنتيمترًا أو أقل مما يسمح بأن تتوارى فى حذاء ..

أحدثت الصوت الغاضب المشئوم الشبيه بماء يغلى واتخذت وضعًا قتاليًا ، لكن النمس راح يدور حولها فى خبرة .. انقضت عليه مرة فتملص منها .. انقضت مرة أخرى فتملص .. ثم انقضت مرة ثالثة لتجد أنها بين فكيه وأنيابه الحادة ...

راح يهزها فى قسوة وجشع ليمزقها وهى تتلوى بلا توقف .. وفى النهاية همدت حركتها فتدلت بينما راح يلتهمها ... لقد استحق وجبة عشائه فعلاً... لولا هذا الضيف الثقيل لكانت برنادت ترقد على الأرض الآن تبحث عن ترياق بأسرع ما يمكن ..

قال (علاء) لبرنادت وهو يمسك بالحبل الذى يربط النمس :

ــ « ستكون عملية إعادته للقفص كارثية .. »

هذا الشىء شرس خفيف الحركة رشيق مرن .. ينزلق من بين أناملك كالحنكليس وعضته ذكرى شنيعة ..

قبل أن يفهم (علاء) ما حدث كان النمس يركض نحوه .. لا يمكن أن تسيطر عليه إلا بحبل آخر ثان مشدود كما يفعل صيادو الفهد .. إن الفهد ينقض دومًا على الممسك بحبل واحد ..

بسرعة البرق أيضًا كانت عبير قد جلبت سلة المهملات الكبيرة جوار الباب فقلبتها بما فيها فوق النمس.. ثم جلست فوقها تلهث من الجهد والتوتر....

قال (علاء) وهو يلهث بدوره :

ــ « ستكون عملية صعبة .. لكن بوسعنا أن نغريه بالعودة للقفص ، لو فتحناه بحذر جوار سلة المهملات .. »

قالت برنادت فى مكر وقد رسمت (التشنيكة) الشهيرة :

ــ « هذا شىء شائق .. الحياة معك مسلية للأبد ولا يمكن أن تكون مملة فى أى لحظة. تصور كم زوجة فى العالم تحاول مع زوجها الآن أن تعيد نمسًا لقفصه !.. »

ــ « تتكلمين كأننى أحب هذا .. »

ــ « فقط أحب أن أغبط نفسى .. »

* * *

فجأة بدا أن هاتف (علاء) الجوال يصحو من غيبوبة ..

رررررن !!..

انتفض ونظر للشاشة كأنه صار يتوجس من أى شىء له علاقة (بالجرس) .. ثم ابتلع ريقه ومد يده يلتقط الهاتف.. رأى اسم بسام فوجف قلبه ..

رأت برنادت نظرته المتوترة فتساءلت عما هنالك .

قال بصوت مبحوح :

ــ « بسام !!.. »

ثم فتح الهاتف .. هنا جاء صوت بسام متقطعًا يتسرب عبر شبكة هاتف ضعيفة شبه معدومة. وكان منهكًا بدوره يتكلم بكثير من المشقة ... الصديق الذى ارتحل إلى الجابون ..

قال (علاء) :

ــ « هل أنت سليم ؟.. »

ــ « سليم وفى طريقى لمينفول (غير مفهوم) لا أكون كذلك .. هؤلاء القوم (غير مفهوم) خطرون .. »

ــ « ماذا وجدت ؟ هل قابلتها ؟.. »

قال بسام :

ــ « قابلت مومياء جدتها أو أمها (غير مفهوم) .. لقد دنسنا كهفهم مرة ثانية .. »

ــ « وميرا جوران ؟ أين هى ؟.. »

جاء صوت بسام المتوجس :

ــ « هى (غير مفهوم) فى الكاميرون تنتقم من المدنسين .. طبعًا لا يصعب عليك معرفة من هؤلاء المدنسون .. »

ــ « هل تعنى أنها فى الكاميرون فعلاً أم أننى أسأت السمع ؟.. »

ــ « بالفعل هى عندكم .. أنت سمعت .. هى ليست مع قبيلتها فى الجابون (غير مفهوم) .. وليس .... »

ثم تلاشى الصوت نهائيًا .. ذاب فى الفراغ ...

لكن ما سمعه (علاء) كان كافيًا ...

بسام سليم وهذا كاف .. أما الأهم فهو أن ميرا جوران فى الكاميرون فعلاً . رحلة بسام لم يكن لها داع .. لكن أين هى ؟ هل هى فى قرى الباميليك ؟ وماذا تعمل من غير قبيلتها ؟

الشعور الممض بأنه لا مفر هنالك .. السبب الذى يجعل الفأر المطارد يرقد على الأرض ويتكور بانتظار قدوم القط ..

ســوف تربحين يا ميــرا جوران .. فلماذا بالله عليك لا تفعلين هذا بسرعة ؟

الانتقام يجب أن يقدم باردًا .. وميرا جوارن قد وعت هذا الدرس حرفيًا ..

* * *

17 ـ الباحثــون ..

بسام وجد ثلاثة ثعابين فى السيارة ..

ثعبان فى الحقيبة الخلفية وثعبانان فى أرضية السيارة .. احتاج الأمر إلى كثير من الهستيريا حتى تم إلقاء الثعابين فى التراب ثم قتلها بالصخور والأحذية ..

كان توقعه سليمًا ، ولو لم يأخذ حذره لتلقوا عضات قاتلة ..

لقد وضع عبدة الأفاعى حراسة محكمة حول السيارة ، وكانت حراسة أقوى من البشر المدججين بالسلاح ..

فى النهاية ارتمى ثلاثة الرجال على الأرض يلهثون ، ولم يبالوا بكل ما بلعوه من غبار ..

طلب رافاييل لفافة تبغ من بسام فأشعلها ثم قال :

ــ « هل تعتقد أن زعيمهم مات ؟.. »

ــ « لا أعتقد .. هؤلاء القوم يملكون أساليب فعالة لعلاج السم ، كما أنه بالتأكيد كسب مناعة معينة من كثرة ما تلقى من عضات .. بالــتأكيد ليست هذه أول مرة .. »

نفث رافاييل سحابة كثيفة وقال :

ــ « أنت عائد إلى مينفول إذن ؟.. »

ــ « بل إلى ليبرفيل نفسها .. سأعود للكاميرون .. لقد انتهت مهمتى هنا . ميرا جوران ليست فى الجابون .. »

لم يكن رافاييل يعرف من هى ميرا جوران بالضبط ، كما أن السائق لم يملك أى فكرة عن القصة كلها .. الزبائن طلبوا القدوم هنا .. الزبائن طلبوا قضاء الليل .. الزبائن عادوا مذعورين يطلبون الرحيل . الزبائن يفتشون السيارة بحثًا عن ثعابين ..

كان محترفًا وقد تعلم ألا يوجه اسئلة .. فقط ظل يرمقهم فى صمت ..

قال بسام وهو ينهض وينفض ثيابه :

ــ « هيا بنا .. »

وتفحص الهاتف الجوال ليرى إن كانت الشبكة قد عادت ..

❋ ❋ ❋

الكلاب البوليسية راحت تركض فى الممر وهى تنبح ..

قال بارتلييه وهو يهز كرشه الضخم محاولاً اللحاق بهذا المشهد :

ــ « هى تشم شيئًا بالفعل .. »

كان هذا هو الظهر ، ولهذا بدا كل شىء فى ضوء الشمس واضحًا محددًا. يخيل لك أنك تدرك حقيقة الكون ذاتها .. كان رجل الشرطة يحمل حافظة الكهربائى (روجيه ميكا) .. الشىء الوحيد الذى تركه خلفه . شمت الكلاب الرائحة ثم انطلقت تركض فى ممرات الوحدة ..

راح رجال الشرطة يركضون محاولين اللحاق بالكلاب التى توشك على تمزيق القيود الجلدية ، ولحق بهم (علاء) وهو يلهث .. ثم جاء باركر وبعض الأطباء ..

الكلاب تتوقف عند فتحة مجرور وتخمش وتصدر زئيرًا مفزعًا ..

تبادل الرجال النظرات ..

(علاء) كان صاحب الفكرة طبعًا ، فقد رأى تلك المرأة الشبح تمشى فى الممر ثم تختفى قرب هنا .. هل يمكن لحاجيات الرجلين المختفيين أن تخبرنا عن مكان المرأة ؟؟

وضع المدير يده على كتف باركر وقال :

ــ « ماذا يوجد تحت ؟ شبكة المجارى ؟.. »

قال باركر فى قلق :

ــ « سوف نأخذ رأى المهندسين .. لكن هذه هى شبكة الأنابيب . أنابيب الغاز وأنابيب الماء وأنابيب الكهرباء .. هذا هو العالم السفلى لسافارى والبحث فيه ليس سهلاً .. »

قال (علاء) :

ــ « السر يكمن هنا .. سوف نجد جثتى الرجلين .. ولربما .... »

ثم صمت ..

كان يقصد ميرا جوران طبعًا ..

بعد قليل ظهر اثنان من مهندسى الوحدة الأفارقة ، ومعهما كشافات للاستعمال فى حالة الدخول .. وكان أحدهما يحمل خارطة للقبو ..

ــ « القبو كبير ومعقد .. البحث فيه يحتاج لعدة رجال مجتمعين .. وكلهم يحمل الكشافات .. »

قال رجل شرطة :

ــ « الكلاب سوف توفر علينا عناء البحث .. »

الفتحة الأسطوانية فى الجدار الشرقى هى بداية ممر هابط .. درجات سلم معدنى حلزونية تقودك إلى عالم آخر ينعس تحت وحدة سافارى ، حيث الظلام والرطوبة والفئران وهدير الماء فى المواسير .. غلايات تهدر بلا توقف ..

اجتاز المهندس الفتحة وتبعه أحد رجال الأمن .

ثم جاء دور الشرطى ليقتاد الكلب لكن ... هاو هاو هاو !.... حالة هياج غير مسبوقة .. الكلب يتمرد على حارسه .. يتملص من المقود .. لن يدخل هنا بأى ثمن ..

ــ « ثمة شىء يخيفه بالداخل ... »

راح رجلان يحاولان إرغام الوحش التعس بلا جدوى .. كان مستعدًا أن يمزق الجميع ولا يدخل ..

هكذا وقفوا خارج الفتحة يفكرون فيما ينبغى عمله .

ضـوء الشمس يغمـر الجميع ويشعرهم بالثقـة .. لكن الكلاب تأبى الدخول ..

هنا هتف (علاء) :

ــ « انتظروا !.. »

راح يركض أمام نظراتهم المندهشة ، وهرع إلى مسكن الأطباء حيث تنتظر برنادت مع سارة فى الغرفة الضيقة سيئة التهوية ..

قالت برنادت :

ــ « ما الذى ؟.. »

لكنه لم يرد .. فقط احتضن القفص الذى يوجد فيه النمس يتدلى منه الحبل وراح يلهث وهو يجرى خارجًا من الغرفة .. النمس يرمقه بعينين حمراوين لا تفهمان ..

كان الرجال واقفين جوار الفتحة عندما ظهر (علاء) من جديد ...

قال للمدير وهو يفتح الباب المعدنى الصدئ الذى يقود للقبو :

ــ « هذا هو من سيجدها لنا !.. »

ثم صاح فى الرجال :

ــ « أريد كشافًا !.. »

قال المدير وقد تدلت شفته السفلى فى بلاهة :

ــ « هل تمزح ؟ الموقف لا يتحمل هذا السخف .. »

لكن (علاء) اجتاز الفتحة حاملاً القفص وراح يهبط فى الدرج بصعوبة ..

قال للمدير قبل أن يتوارى وجهه :

ــ « أرسل المزيد من الرجال ! سوف نحتاج لهم .. »

وسرعان ما غاب فى الظلام ...

* * *

عندما هبط (علاء) إلى الأرض الزلقة كان الظلام ستارًا سميكًا يلتصق بكل شىء. لا يمكنك أن ترى يدك .. أشعل الكشاف .. ومن بعيد سمع خطوات الرجال الذين سبقوه يفتشون المكان ...

بقع نور تتحرك من بعيد .. بينما من حوله غابة من المواسير والخراطيم والغلايات ، وعلى الجدران لوحات تنظيم الكهرباء وقواطع الدوائر .. هذا عالم لا يمكنك أن تمشى فيه ما لم تكن حرفيًا ــ بكسر الحاء ــ تعرف ما تقوم به ..

انحنى (علاء) ومد يده يلتقط طرف الحبل .. ثم فتح القفص ..

لا يوجد خطأ . النمس فى حالة توتر غير مسبوقة . عندما تحرر النمس كان (علاء) مستعدًا ليمسك بالحبل فلا يفلت الحيوان منه ...

انطلق الحيوان يركض كدودة مجنونة بين الممرات ، و(علاء) يحاول ملاحقته حتى لا ينزلق الحبل بين أنامله .. تعثر مرتين ونهض .. عشرات المواسير توشك على الاصطدام به .. ممرات .. لو كان هذا فيلمًا سينمائيًا لكان مشهد ذروة خلابًا . فى السينما تعرف أن الذروة يليها انتصار البطل .. لكن هنا ؟؟؟

النمس يركض ...

و(علاء) يحاول ألا يفلت منه ..

وفجأة استطاع (علاء) أن يميز على الأرض شيئًا ...

ربع إنسان بالمعنى الحرفى للكلمة .. الذراع بالكتف وعضلات الظهر ... يمكنك بسهولة أن تدرك أن هذا رجل أسود نحيل ..كان كذلك .. بسهولة أكثر يمكن استنتاج أن هذا هو (جون جالووزى) فنيى التكييف الذى اختفى.. هذه بقاياه ..

الشىء كان هنا فى هذه الشبكة المخيفة .. وكان ينتظر .. عندما يهبط شخص تعس مثل (جون جالووزى) أو الكهربانى (روجيه ميكا) كان يقع فى الشرك ..

إن من اختفوا لم يهربوا .. لم تختطفهم عصابة .. لم يفروا مع امرأة حسناء ...

كانت نهايتهم أبسط من هذا بكثير ..

هنا انزلق الحبل من يد (علاء) ، وفر النمس منه ..

لا ..

إنه هنا وحيد وسط ممرات مظلمة تبدو كأنها من رواية (آلة الزمن) لهــ . ج ويلز حيث كان عالم الميرلوك ... المدينة الصناعية المعقدة تحت الأرض ....

دار بالكشاف من حوله ..

الرجال قريبون على كل حال .. بعض الصياح وسوف يجدهم ..

سمع حفيفًا عند نهاية الممر فنظر ..

رآها تقف هناك فى ضوء الكشاف .. عيناها حمراوان .. رائعة الحسن كما عرفها من قبل .. السارى الهندى .. القامة الفارعة ، وكانت تحمل جثة فى يدها .. جثة تتدلى كالجرس .. لقد ظفرت بالنمس ..

ضحكت ضحكة وحشية صامتة ثم طوحت بالجثة عند قدمى (علاء) وابتعدت ...

هى تريد أن يلحق بها ...

❁ ❁ ❁

النساء رحن يغسلن وجهها باللبن .. وعندما أفاقت كانت ترقد على الأرض جوار حفرة ثعابين تتلوى ، لقد انتهت مهمتها وقامت بالطقس الأهم

فى ناج بانشامى . الإله (ناج ديفتا) راض عنها لأنها قبّلت الناجا ناجا فى ثغره ثلاث مرات ...

حياتها سوف تتخذ شكلاً جديدًا ..

❁ ❁ ❁

الناجا ناجا هى الكوبرا الهندية المفزعة .. كبيرة الحجم قاتلة .. يمكنها أن تتخذ شكل امرأة بسهولة تامة .. ومن الجلى أن المرأة قادرة على التحول إلى كوبرا ..

ميرا جوران قامت بطقس رهيب ، وصار بوسعها أن تصير كوبرا عظيمة متى شاءت ..

ميرا جوران كانت تحت وحدة سافارى منذ البداية ، وقد أرسلت أفاعيها لتقتل وتهاجم ... وسحرها يعبر المحيط إلى الولايات المتحدة ....

ميرا جوران ظلت هنا .. تخرج لتتغذى أو يقع بعض الحمقى فى شركها ..

❁ ❁ ❁

بعد خطوات وجد (علاء) جثة مدير الأمن ماليك جوار غلاية عملاقة تهدر ..

كان على الأرض شاخص العينين وقد تقلص وجهه ألمًا ... جواره الكشاف ما زال مضاء ، وهناك جزء متهتك فى عنقه يدل على أنه تعرض لعضة قوية ..

انحنى (علاء) والتقط الكشاف وأطفأه ثم دسه فى جيبه .. سوف يحتاج له بالتأكيد عندما ينطفئ الكشاف الآخر. ثم فتش فى حزام الرجل فوجد مسدسًا ..

تأكد من إزاحة ترباس الأمان وشعر بالمعدن البارد الثقيل فى يده كأنه يقول : أنا معك .. شعر براحة ..

ثم إنه مضى بين الممرات شـــاعرًا أنه برسيوس الذى يحاول قتـــل ميدوسا ..

بالفعل هو نفس المشهد حرفيًا ...

توقف لاهثًا ..

جثة رجل شرطة آخر ترتمى هناك ..

إنها تتسلى عليهم واحدًا تلو الآخر بعد ما تفرقوا ...

لا بد من حل ...

وجد صمام البخار الساخن جواره .. المكتوب هو : خذ الحذر . ماء ساخن جدًا . صمام أمان للغلايات يمنع زيادة الضغط أكثر من اللازم . ثبت الكشاف فى وضع يكشف له الممر كله ، ووقف جوار الصمام وصرخ :

ــ « ميرااااااااااااااااااااااااااااااااااا !.. »

لا شىء ..

ــ « ميراااااااااااااااااا !!.. »

الصدى يردد الصيحة .. ثم :

ــ « أنا (علاء) عبد العظيم الذى دمر صنم قبيلتكم .. أنت تعرفيننى .. جئت من أجلى ... أنا هنا أنتظرك وأتحداك !.. »

ردد الصدى : داك .. داك .. داك !

ثم سمع صوت الفحيح ...

ومن نهاية الظلام رأى الشىء يدخل دائرة الضوء .. الكوبرا الهندية المخيفة ناجا ناجا ..

فى الوضع الناشر الغاضب تزحف ..

عيناها تتوهجان ...

فحيييييييييييييييييييييييييح ...

الرأس ضخم أقرب لرأس حمار .. يمكنك تخيل حجم باقى الجسد ...

يمكنك تخيل كمية السم فى هذين النابين ...

لقد اقتربت ..

مد يده ــ بينما قلبه يوشك على التوقف ــ وعالج الصمام .. لم يتحرك .. عالجه بقوة أكثر .. صدئ ... وفجأة اندفع صاروخ من الغاز الساخن الحارق فى وجه الكوبرا ....

ش ش ش ش ش ش ش !

أطلقت فحيحًا غاضبًا وتأوهت فى ألم بلا صوت طبعًا .... وراح الذيل يضرب المواسير فيهشمها كأفعوان أسطورى يحتضر ... كانت تحترق ..

أخرج (علاء) المسدس وأحكم التصويب إلى الرأس ثم أطلق .. أطلق ثلاث رصاصات ..

وعندما زال الصدى كان جسد يرقد على أرض المكان ... جسد امرأة جميلة تلبس السارى الهندى وقد احترق أكثر جسدها وهشمت الرصاصات رأسها ...

كان يلهث عندما سمع صوت رجال يتصايحون ورأى ضوء كشاف ...

ــ « إنه هنا !.. تعالوا ..!.. »

ــ « النمس مختنق !.. »

ــ « جون ماليك ميت !.. هذه جثته !.. »

ــ « رباه !.. »

ثم رأى الكشافات تحيط به وتتفحص الجثة ... لم يعد يرى شيئًا.

إذ سقط على الأرض فاقد الرشد ، كان يتساءل عن الكيفية التى سيشرح بها القصة ، وعن التفسير الذى سيقدمه لحرق امرأة هندية جميلة وقتلها بالرصاص ..

فيما بعد .. فيما بعد ..

* * *

سيكون على (علاء) أن يمضى وقتًا عصيبًا فى التحقيقات ، ولسوف يقتنع رجال الشرطة أنه كان يدافع عن نفسه بعدما رأى ما أصاب كل رفاقه ..

لقد تحرر من اللعنة ، وكذا نجت زوجته وابنته .. هذه نهاية ليست سيئة برغم الثمن الفادح ..

بسام الشهم عاد من الجابون وأسعده أن الكابوس انتهى ..

هل تعاود قبيلة أودجيلا طقوسها ؟ وهل تعود للكاميرون فى عام الأفاعى القادم ؟ للأسف هذه أسئلة لا تعنينا هنا فى وحدة سافارى .

* * *

سافارى

صدر من هذه السلسلة :

رقم الإيداع : 9095
977 - 378 - 171 - 2

روايات مصرية

سافاری 51

مغامرات طبيب شاب يجاهد كى يظل حيًا وكى يظل طبيبًا



د. أحمد خالد توفيق

عودة ساحرة الأفاعى

13 / 12 / 015

بعدما طال الزمن ، وحسبت أنك من الناجين وأن لاعنيك قد نسوا لعناتهم ، تكتشف أنك كنت أحمق .

الانتقام طبق يجب أن يُقدّم باردًا ، وقد فهم شانئوك هذه النقطة جيدًا ، وانتظروا أعوامًا حتى أيقنت بالخلاص .. لكنك كنت واهمًا بالطبع .

ليس أسوأ من أن تطاردك الأفاعى السامة ، إلا أن تتركك سالمًا وتطارد أسرتك .. !

الكتيب القادم

أيام الكونغو

www.rewayatmasriya.com

facebook.com/rewayatmasriya

الخط الساخن

19350

العربية الحديثة